

## دور الدين والإنسان في فلسفة التاريخ وحركته

أ.د. محمد صالح جواد السامرائي

أستاذ التاريخ الإسلامي في كلية الإمام الأعظم الجامعة ببغداد

بحث التفرغ العلمي في جامعة اسطنبول / كلية الإلهيات

بإشراف أ.د. نور الدين كيميحي أستاذ التاريخ فيها

### المستخلص :

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكتب التراجم مليئة بالآثار والقيم الدينية والإنسانية وتأثيرها على الحياة الواقعية في ضوء التاريخ الإسلامي، وهي تمثل تراثاً ضخماً تجعل من التاريخ مسرحاً صالحاً للحياة، ليصنع من الحياة صرحاً متيناً للتاريخ، فيتعانق التاريخ والحياة ويتعمق دور الدين والإنسان في حركة التاريخ وفلسفته المعاصرة. وقد تضمن هذا البحث خمسة مباحث شملت عناصره ومفاصله، وعلى النحو الآتي:

المبحث الأول: دلالات الدين وما يتصل به من حيث المفهوم والمنشأ، والألفاظ ذات الصلة.

المبحث الثاني: التاريخ، ماهيته، نشأته، وتطور مفهومه، ومنهج روايته.

المبحث الثالث: دلالات الفلسفة وفلسفة التاريخ.

المبحث الرابع: دور الدين وأثره في فلسفة التاريخ وحركته.

المبحث الخامس: دور الإنسان في فلسفة التاريخ وحركته.

ثم خاتمة ببيان أهم نتائج البحث.

الكلمات المفتاحية : الدين ، التاريخ ، السيرة ، القرآن ، الفلسفة .

### Abstract :

The role of religion and man in the philosophy of history and its movement

The Holy Quran, the Sunnah of the Prophet and the books of translations are full of religious and humanistic influences and values and their impact on real life in the light of Islamic history. They represent a huge heritage that makes history a viable theater of life, making life a solid monument to history, embracing history and life and deepening the role of religion and man in the movement. History and contemporary philosophy.

The research included five topics, including its components and details, as follows:

- The first topic: the meanings of religion and related in terms of meaning and origin, and the relevant terms.

- The second topic: It was about history and its origin and development of the concept and methodology of his novel.

- The third topic: the implications of philosophy and philosophy of history.

- The fourth topic: the role of religion and its impact on the philosophy of history and movement.

- The fifth topic: the role of man in the philosophy of history and movement.

- Then conclude with a statement of the main findings of the research.

### مقدمة

الحمد لله الواحد المنان، خلق الكون والحياة بكل إتقان، وجعل الإنسان سيداً وزوده بمستلزمات البنيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ خير معلّم الزمان، وآله وصحبه ناشري الفضيلة والإحسان، وسلّم تسليماً كثيراً. وبعد:

فلا يخفى أن التاريخ هو سياسة الماضي، وثمره الحاضر، وتخطيط بناء المستقبل، حيث يصاغ المستقبل صياغة واعية متأنية مبنية على أسس من الأبعاد التي صنعت تاريخاً مشرقاً بالأمس، وهي قادرة على صياغة مثله على أرض الواقع اليوم؛ لما لهذه الأدوار من آثار فردية وجماعية تنعكس على مسيرة الحياة وتطورها.

والعوامل التاريخية التي أثرت في فلسفة التاريخ متنوعة، فمنها: الديني والإنساني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي... الخ، وقد اخترت في هذا البحث دراسة الدور الديني والإنساني لما سيأتي بيانه، وسميت بحثي (دور الدين والإنسان في فلسفة التاريخ وحركته)؛ وذلك لما لهما من أثر عميق الدلالة في الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها، والإنسان هو نقطة الارتكاز في حركة التاريخ وفلسفته، إذ هو المعني بالقيام بدور الخلافة في الأرض، ومنه ينطلق المجتمع في رسم حضارته وسعادته وتماسكه، والبعد عن أسباب انهياره وسقوطه، وهو أحوج ما نكون إليه اليوم في عالمنا المعاصر الذي تتقاذفه الأهواء والفتن، وتحيط به المنحنيات والمحن.

وقد رسم الإسلام منهجاً كاملاً في التعامل مع التاريخ البشري بدءاً من توجيه الإنسان صوب الأهداف العليا عن طريق استخلاص القوانين

والسنن الكونية التي تحكم الظواهر الاجتماعية، وتوجيه الفكر الإنساني نحو الكمال والشمول، ذلك الفكر المنبثق من الدين المستند إلى الكتاب والسنة، فلا إسراف في الخيال والتنبؤات كما عند المؤرخين الوضعيين، ولا استكشاف للغيب المجهول كما يمنح إليه بعض الفلاسفة، بل يسير مع الإنسان بواقعية وشفافية، عارفاً حدود طاقاته وإمكاناته، آخذاً بيده نحو التعمير والتغيير، والإبداع والتنوير، مقدراً لحظات ضعفه، غافراً زلاته، داعياً إياه لمواصلة الطريق ومباشرة السنن والقوانين، ومعرفة التعامل مع عامل القدر بنوعيه الكوني والشرعي، على هدي من العلم والعقل والبحث والتجربة، مستهدياً بوحى الله لإعمار الأرض وبناء الحضارة وأداء الرسالة على أكمل وجه.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه بعد هذه المقدمة إلى خمسة مباحث وخاتمة، وكما يأتي:

**المبحث الأول:** الدين من حيث مدلوله وأصوله وأسباب التعلق به، ومنشؤه عند الإسلاميين والغريبيين، وبيان أن الأصل في الإنسان هو الفطرة وهي الإسلام، مع بيان ألفاظ ذات صلة بالدين ومواقع الاتفاق والافتراق فيما بينها.

**المبحث الثاني:** التاريخ من حيث ماهيته ونشأته ومنهج روايته، ففي ماهيته تطرقت لتطور التاريخ وأقسامه وشروط المؤرخ، وفي نشأته بينت علاقة التاريخ بالسيرة النبوية ومصادر علم التاريخ، وفي منهج روايته وضحت المنهج العلمي في ذلك ومنهج كتابة التاريخ وأسباب ورود الخطأ التاريخي.

**المبحث الثالث:** دلالات الفلسفة وفلسفة التاريخ، تطرقت فيها لمفهوم الفلسفة ونشأتها وموضوعها ونظرياتها وتطورها، مع بيان قيمة الإنسان وفاعليته في الفلسفة، وبيان مفهوم فلسفة التاريخ وأهميتها وفوائدها، وسبق المسلمين إلى

**المطلب الأول: مدلول الدين وأسباب التعلّق به**  
أتحدّث هنا عن مدلول الدين لغة واصطلاحاً، ثمّ أسباب التعلّق به عمومًا، وذلك في النقاط الآتية:

#### أولاً: الدين لغةً

بيّن الفيروز آبادي أنّ الدين بالكسر يعني الجزاء، وقد دنته دينًا، والإسلام وقد دنت به، والعادة، والعبادة، والطاعة، والذل، والحساب، والقهر، والغلبة، والاستعلاء، والسلطان، والملك، والحُكم، والسيرة، والتدبير، والتوحيد، والملة، والورع، والقضاء، واسمٌ لجميع ما يُتعبّد الله عزّ وجل به، ودنته أدبته: خدمته وأحسنّت إليه وملكته، وفي الحديث: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ»<sup>(1)</sup>، أي على ما بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام<sup>(2)</sup>.

وقال الكفوي: (الدين، بالكسر، في اللغة: العادة مطلقاً، وهو أوسع مجالاً، إذ يُطلق على الحقّ والباطل، ويشمل أصول الشرائع وفروعها)<sup>(3)</sup>.

وبيّن دراز أنّ المعنى يختلف باختلاف العبارة، وهي ثلاث عبارات:

**الأولى:** دانه دينًا: أي ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهره وحاسبه وقضى في شأنه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَلِكٌ يُوقُزُ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]، والثانية: دان له: أي أطاعه وخضع له، فالدين هنا الطاعة والخضوع والعبادة والورع، والثالثة: دان بالشيء: أي اتخذ دينًا ومذهبًا، أي اعتقده أو اعتاده أو تخلّق به، ويظهر أنّ هذه المعاني متلازمة، فالثاني مطاوع للأول، والثالث تبع لهما، وبالجملّة فالمادة كلها تدل على وجود علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر

فلسفة التاريخ، وذكر نماذج من الفلاسفة العرب والغربيين.

**المبحث الرابع: دور الدين وأثره في فلسفة التاريخ**  
وحرّكته، وبحث فيه الجانب السلوكي، والجانب التشريعي، والجانب الكوني، لما لهذه الجوانب من الأثر الواضح للدين، والحركة التفاعلية مع فقه الأقدار، وإزالة اللبس الحاصل في ذلك.

**المبحث الخامس: دور الإنسان في فلسفة التاريخ**  
وحرّكته، مبيّنًا طبيعة الإنسان، وعدوه في الأرض، وفردية الخطيئة، ثم مسؤوليته عن التغيير، واستلهم السنن للقيام بواجب الخلافة، وبيان حركة الإنسان بين القدر والواقع، وموقفه من التعامل مع قانون الغيب والشهادة، وقضية المصير والمشية.

**وأخيرًا الخاتمة:** عن أهمّ النتائج، موشحًا البحث بقائمة المصادر والمراجع التي أفدت منها، وأنوه هنا إلى الاكتفاء بذكر بطاقة الكتب آخر البحث؛ لئلا تثقل الهوامش، كما أذكر السورة ورقم الآية بعد ذكرها في الأصل مباشرة.

وختمًا أقول: هذا جهد بشري، فما كان من صواب فبمحض فضل الله الكريم، وما كان من زلل أو تقصير فمن نفسي، وأبرأ إلى الله من حولي وقوّتي إلى حول الله وقوّته، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلّم على رسوله الأمين وآله وصحبه أجمعين.

### المبحث الأول

#### دلالات الدين وما يتصل به

نعرض في هذا المبحث إلى معنى الدين وأسباب التعلّق به، والأصل في نشأته عند الغربيين والإسلاميين، والألفاظ ذات الصلة بالدين، ومعنى التاريخ، والمراد من فلسفة التاريخ، وذلك في المطالب الآتية.

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، برقم (6271).

(2) ينظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي 4/ 225.

(3) الكلّيات، أبو البقاء الكفوي، ص 443.

على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة وفي خضوع وتمجيد) وبعبارة موجزة (هو الايمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة)<sup>(5)</sup>. وهذا التعريف جامع مانع من حيث تضمنه العناصر الرئيسة في الدين، والتي سيأتي بيانها. تعريف الدين عند غير المسلمين: عرّفه جمعٌ من الفلاسفة غير المسلمين، وفيما يأتي أقوال بعضهم في ذلك:

- 1 - عرّفه (كنط)<sup>(6)</sup> بأنّه: الشعور بواجباتنا نحو المشرع الأسمى بتلقيها مباشرة من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية<sup>(7)</sup>.
- 2 - وعرّفه (ريفيل)<sup>(8)</sup> بأنّه: (توجيه الإنسان سلوكه

(5) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، ص 52.

(6) إيمانويل كنط Immanuel Kant (1724 - 1804 م): فيلسوف ألماني من عائلة بروتستانتية، اعتمد في فلسفته على مبدأ العلية مبدأً أولياً في العقل ثم تتحول إلى قضية تجريبية، ويرى كنط ضرورة الوصل بين العقلين النظري والعملي، له رسالة بعنوان: الأساس الممكن الوحيد للبرهنة على وجود الله، برهن فيه على وجود الله بدون تحفظ، وعين أستاذاً خاصاً بجامعة كونجسبرك، ومن كتبه: نقد العقل الخالص النظري، وتأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، والدين في حدود مجرد العقل. (ينظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف بطرس، ص 208 - 214).

(7) ينظر: الدين في حدود مجرد العقل: أمانويل كنط، نقله إلى العربية: فتحي المسكيني، ص 241.

(8) برنارد ريفيل (1885- 1940 Bernard Revel م): عالم يهودي وُلد في (ليتوانيا) ودرس فيها، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1906 حيث استكمل دراسته وأسس أول مدرسة ثانوية تجمع بين الدراسات الدنيوية والدراسات التلمودية، وأسس كلية (يشيفا) التي كانت أيضاً أول كلية جامعية تجمع الدراساتين، وكان أول رئيس لها، وقد اختير ريفيل رئيساً شرفياً لاتحاد الحاخامات الأرثوذكس في الولايات المتحدة وكندا، ويُعدُّ ريفيل من أهم مؤسسي المذهب الأرثوذكسي في

ويخضع له، فالدين إذن هو الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر المعبر عنها، وبهذا يظهر أن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد، فالاستعمال الأول إلزام الانقياد، والثاني التزام الانقياد، والثالث المبدأ الملزم للانقياد له<sup>(1)</sup>.

### ثانياً: الدين اصطلاحاً

تباينت وجهات النظر بين المفكرين من الإسلاميين وغيرهم في تعريف الدين، وهذا الاختلاف نابع من تعدد التصورات حول مفهوم الدين، وفيما يلي بعض أقوالهم في ذلك:

تعريف الدين بالمصطلح الإسلامي: عرّف علماء الاصطلاح الإسلامي الدين بما يأتي:

1. قال الكفوي: هو (عبارة عن وضع إلهي سائق لِذَوِي الْعُقُول باختيارهم الْمُحْمُود إِلَى الْخَيْرِ بِالذَّاتِ، قَلِيلاً كَانَ أَوْ قَالِبِيّاً، كَالْاِعْتِقَادِ وَالْعِلْمِ وَالصَّلَاةِ)<sup>(2)</sup>.

2. (وضع إلهي شرعي لإسعاد البشرية في معاشهم ومعادهم أي في حياتهم في الدنيا والآخرة)<sup>(3)</sup>، ويوضح رضا أن هذا الوضع الإلهي (يوجه الله إلى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين)<sup>(4)</sup>، ولا شك أن هذه التعريفات تنطبق على الدين الحق.

3. (هو الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات غيبية علوية لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان اعتقاداً من شأنه أن يبعث

(1) ينظر: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، ص 32-33.

(2) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص 433.

(3) كلمات مضيئة في الدعوة إلى الله، محمد علي إمام، ص 319.

(4) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص 175.

أو بمعنى: إعادة الجمع والقطف، إشارة إلى التفكير والتعبد والتأمل والعمل تبعاً لما يستخرج من تلك التأملات<sup>(5)</sup>.

ويلاحظ من تعريفات الغربيين الاتفاق على حقيقة واحدة، وهي وجود قوة عليا يجذب الإنسان نحوها، ويدين ويخضع لها، وإن اختلفت تعبيراتهم عن هذه القوة أو الروح المقدسة، وإنما سقنا تعريف بعض الغربيين للدلالة على أصل الشعور بوجود الإله الحق، وأن الدين ضروري بالفطرة للبشر جميعاً مؤمنهم وكافرهم على حد سواء، ويترتب على ذلك الاعتراف ضمناً بواجب الإنسان نحو هذا الإله وهذه القوة بالعبودية والخضوع وعمارة الحياة.

#### ثالثاً: أسباب التعلّق بالدين

يسوقنا ما ذكرناه من تعريفات إلى تلمّس ما يجمع الناس على الدين أو أسباب التعلّق به، فيذكر العالم الاجتماعي (موريس)<sup>(6)</sup> أنّها ثلاثة:

1. شعور الإنسان بوجود قوة أو قوى متعدّدة أعظم منه شأنًا.

(5) ينظر: معجم لالاند الفلسفي، ترجمه إلى العربية تحت عنوان: موسوعة لالاند الفلسفية، د. خليل أحمد خليل، 3/ 1203 - 1204، وينظر: الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وآدابه، أحمد بن سيف الدين تركستاني، ص 11.

(6) موريس ميرلوبونتي - 1908: Muris Mirlubunti (1961م): فيلسوف ومفكر وعالم اجتماع فرنسي، وجّه اهتمامه نحو البحث المحسوس والتجربة الإنسانية، ودافع عن فكرة الالتزام الإنساني في العالم وفي التاريخ، متحدّثاً عن صلة الإنسان بالعالم ووحدة الذات والموضوع، وعمل أستاذاً في جامعتي ليون السوربون، وأصدر مجلة الأزمنة الحديثة، من أشهر كتبه: بنية السلوك. موقع الموسوعة العربية العالمية:

[http://www.almeshkat.net/books/archi...ks/emam\\_22.rar](http://www.almeshkat.net/books/archi...ks/emam_22.rar)

وفقاً لشعوره بصلّة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها<sup>(1)</sup>.

3 - وعرفه (دوركايم)<sup>(2)</sup> بأنّه: (مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة أي: المعزولة المحرمة، اعتقادات أعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة)<sup>(3)</sup>. وما تقدم من تعريفات الغربيين (يتبين أنهم ما أرادوا حقيقة الدين، ولكن فكرة الدين أو الاعتقاد بإطلاق، أو فكرة الخضوع والاتباع من حيث هي بغض النظر عن مصدرها ومنهجها، ومدى صحتها)<sup>(4)</sup>.

أما في اللغات الغربية الإنكليزية والفرنسية فكلمة Religion مشتقة عن اللاتينية Religio وهي تعنى بشكل عام: الإحساس المصحوب بخوف أو تأنيب ضمير، بواجب ما تجاه الآلهة،

الولايات المتحدة. (ينظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية 71/15).

(1) الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص 24، نقلاً عن كتابه: مقدمة تاريخ الأديان، ولم أجده رغم البحث.

(2) هو إميل دوركايم 1858 - Durkheim Emile (1917م): يهودي فرنسي، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وهو من وضع له منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن واحد، عزا إلى العقل المشترك للمجتمع: (العقل الجمعي) الذي هو أصل الدين والأخلاق، وكذلك بعض التصوّرات الأساسية كالزمان والمكان، من مؤلفاته: تقسيم العمل في المجتمع، قواعد المنهاج الاجتماعي، الانتحار، الأشكال الأولية للحياة الدينية. (ينظر: كواشف زيوف، عبد الرحمن حسن حبنكة، ص 635 - 636، وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية 8/ 227).

(3) الأديان والمذاهب: جامعة المدينة العالمية، ص 24، نقلاً عن كتابه: الصور الأولية للحياة الدينية، ولم أجده رغم البحث.

(4) الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص 24.



2. اعتقاد الناس بأن لهم صلة بهذه القوة أو القوى.

3. سعي الناس إلى إيجاد واسطة لتوثيق هذه الصلة<sup>(1)</sup>.

وهذه الأسباب عامّة في جمع الناس على الدين، بغض النظر عن كون الدين حقاً أم باطلاً؛ ذلك لأنّ الإنسان مركوز بطبعه الركون إلى ما هو أقوى منه.

### المطلب الثاني:

#### الأصل في التدين وعناصر الدين الحق

يختلف منشأ التدين ودواعيه بين الغربيين والإسلاميين، وهو ما نعرضه في النقاط الآتية:

#### أولاً: الأصل في التدين عند الغربيين

إذا رجعنا إلى أصل التدين في نفس الإنسان عند الغربيين من أمثال (فيبر)<sup>(2)</sup> و(جيفونس)<sup>(3)</sup>

(1) ينظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ص 616.

(2) ماكس فيبر M. Weber (1864 - 1920م)، فيلسوف وعالم اجتماع وسياسة ألماني، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، ينظر إلى الدين كنظام محوري يصوغ النظم الاجتماعية والاقتصادية، وأنّ هناك إلهًا واحدًا متعالياً ومطلقاً هو خالق الكون ومالكه، كما يقدس العمل، من كتبه: الاقتصاد والمجتمع، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية. (ينظر: بناء المجتمع الإسلامي، نبيل السالموطي، ص 73، والعلم والسياسة بوصفهما حرفة: ماكس فيبر، ترجمة: جورج كتورة، من مقدمة الكتاب للطاهر لبيب، ص 7 - 10)

(3) وليم ستانلي جيفونس William Stanley Jevons (1835 - 1882م)، فيلسوف وعالم منطق واقتصاد واجتماع انكليزي، من أوائل من استخدم المنهج الرياضي في التحليل الاقتصادي، كان أستاذاً بجامعة مانشستر ولندن، أبرز كتبه: نظرية الاقتصاد السياسي، دروس أولية في المنطق الاستنباطي والاستقرائي، مبادئ الاقتصاد، المنطق الخالص. (ينظر: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب: روني إيلي ألفا، 1/ 391، ترجمة رقم: 466).

وغيرهما، وجدنا آرائهم لا تخرج عن أربعة:

1 - الحاجة الماسّة التي تدفع الإنسان نحو التدين هي أثر الظواهر الطبيعية أو الدهشة منها، بمعنى أنّ الإنسان يندهش من ظاهرة الرعد والبرق وشدة المطر، أو ظاهرة الخسوف والكسوف، أو ظاهرة المد والجزر، وغيرها، فيدفعه ذلك نحو التدين.

2 - الخوف من كوارث الطبيعة، بمعنى أنّ الإنسان يتخوف من الزلازل أو البراكين أو الفيضانات وغيرها، فيندفع بسبب الخوف إلى التدين.

3 - خروج الروح من الجسد فيصبح جثة هامدة بلا حراك، فيحمله ذلك على تقديس هذه الروح التي يرى آثارها ولا يعلم كنهها.

4 - نظرية التوحيد الفطري، أي أنّ الإنسان يعتقد بوجود إله واحد، فينصاع إلى هذا الإله، لكنّ هذه الفكرة تشوهت مع مرور الزمن لعدم وجود من ينظم هذه العلاقة بين الإنسان والإله الواحد، فانحرف البشر وتعدّدت الآلهة<sup>(4)</sup>.

#### ثانياً: الأصل في التدين عند المسلمين

إنّ الذي يتوافق من الآراء السابقة مع عقائد المسلمين هو الرأي الرابع؛ وذلك أنّ للإنسان جوعة روحية لا يسدّها ويشبعها إلاّ التدين الحقّ بعبادة الإله الواحد الأحد الذي عبّر القرآن عن صفاته بأقصر سورة، ولكنّها أعظم السور وهي سورة الإخلاص، والأصل في الإنسان هو التدين فطرةً كما قال الله تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]، والآية صريحة في أنّ الخلق السويّ الذي لا يُبدّل هو الفطرة السليمة بالتدين

(4) للتوسع ينظر: محاضرات في الأديان المقارنة، سعدون الساموك، ص 4.

2. الوحي: وهو تنزل أمر الله سبحانه الذي يكون وساطة بينه وبين عباده، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163]، كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿حَمَّ \* عَبَسَ \* كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: 1-3].

3. الموحى به: وهو المنهج أو الدين، يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَائِضِينَ﴾ [يونس: 109]، ويقول أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: 7].

4. الموحى إليه: وهم الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ \* وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: 51-53] (5).

ولا بد للدين الصحيح من توافر هذه العناصر، فإذا أخذ الدين عن طريق الفكر الفلسفي المحض أو العقل المجرد، والاجتهاد البشري، بدون الوحي أو النبوة فلا يسمى ديناً صحيحاً، ومعلوم أن العقل بحاجة إلى من يرشده، ولا غرو في ذلك فالإنسان سيد الكون، وهو الخليفة عن الله في عمارة الأرض وحركة المجتمع، (والعقل من أشد أعوان الدين على عقيدة التوحيد، والنقل من أقوى أركانه،

(5) ينظر: الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص 26 - 27.

بالإسلام، وأنّ التدين بدأ منذ بدء البشرية، وأنّ الوحي الإلهي بدأ مع أول نبي على وجه الأرض وهو آدم عليه السلام، وليس كما يزعم الفكر الغربي أنّ (تدين الإنسان نشأ لجهله بمظاهر الطبيعة من حوله، وضعفه أمام كوارثها وأحداثها) (1).

وقد دلّ القرآن الكريم على أنّ الله تعالى يرسل الرسل واحداً تلو الآخر عند حصول الانحراف عن خطّ الاعتقاد الصحيح، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَيُتْرَكُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوكَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: 36]، كما دلت السنة النبوية على هذا الأصل، فقد قال النبي ﷺ: ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) (2)، فدل الحديث على أنّ الأصل هو الإسلام وأنه الفطرة، وأنّ التهود أو النصر أو التمجس يكون طارئاً، ويكون باختيار الإنسان ورضاه (3)، وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ: ((...وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلِّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا...)) (4).

### ثالثاً: عناصر الدين الحق

هناك عناصر يجب توفرها في الدين الصحيح ليكون ديناً إلهياً، وهي على النحو الآتي:

1. المصدر: وهو الله جل شأنه، يقول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1].

(1) الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص 75.

(2) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (1358).

(3) ينظر: شفاء العليل، ابن القيم، ص 284.

(4) رواه مسلم، برقم (2865).

وتأسيساً على هذا فإن الإسلام حريص على زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين؛ لذا ذكر القرآن الكريم الإيمان مقروناً بالأعمال الصالحة في أكثر من موضع، ذاك أن بينهما علاقة متبادلة؛ حيث إن الإيمان يدعو إلى العمل، والعمل يزيد الإيمان في القلب، ونلاحظ هذا في تعريف الإيمان آنف الذكر، وهو شمول الإيمان للسان بالنطق، والقلب بالاعتقاد الجازم، والجوارح بالتنفيذ بالعمل، وللدلالة عليه علامة وهي زيادته بالطاعة ونقصانه بالمعصية، وقد شبه النيسابوري الزيادة والنقصان بشعاع الشمس إذا دخل كوة البيت - التي هي بمنزلة الطاعات - فيزيد وينقص بحسب سعة الكوة وضيقها<sup>(6)</sup>.

وهذا ما تشهد له النصوص، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 124 - 125]، وقد بين العلماء: (أن الإيمان يقوى ويضعف، فإذا قوي زاد عمل المؤمن في الطاعات بفعل الحسنات وترك السيئات، وإذا ضعف قل عمله الصالح وزاد عمله الطالح، فيستدل على الإيمان قوة وضعفاً بمتعلقه وهو الطاعة والمعصية)<sup>(7)</sup>، بل قال ابن كثير: (هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد)<sup>(8)</sup>.

ومما تقدم نخلص إلى أنه من المسلم به وجود هذه الجوعة الروحية عند الإنسان منذ نشأته، وهي لا تختلف عن جوعته المادية المتمثلة بحاجته إلى (6) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين القمّي النيسابوري 2/ 523. (7) أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر الجزائري 411/1. (8) تفسير القرآن العظيم 4/ 210.

وكلاهما ينسجم مع الآخر ولا يتعارضان؛ لأنهما من مصدر واحد، فإن وقع اختلاف دلّ على أن الوحي حُرّف، أو أن العقل ضلّ الصراط المستقيم الذي رسمه الوحي الإلهي، والذي أساء استخدام العقل هو الإنسان نفسه، وتحريف الكتاب المنزل بتخريج نصوصه تخريجاً يبعده عن هدفه تحت التأثير بعوامل شخصية، أو بمذهب معين يحول بين الانسجام بينهما<sup>(1)</sup>.

ومفهوم الدين مرتبط بالإيمان الذي يركز على أركان ثلاثة: وهي (مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَسَائِرِ الْجَوَارِحِ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جُمْهُورُ السَّلَفِ)<sup>(2)</sup>، ومعلوم أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية<sup>(3)</sup>، وإن من أعظم وسائل نماء الدين والتدين هو العقيدة إذ هي الدافع الأكبر للمسلم في صلاح أفعاله وأقواله وأخلاقه وتصرفاته، وهي التي تنبت الإيمان وتثبته، وكلما كان الإيمان قوياً كانت ثمرته عظيمة في نفس المسلم، وإذا ضعف لم تبق له ثمرة في قلبه، فعليه يجب على المؤمن تعهد إيمانه إن كان زاد أم نقص، وأن ينظر في أسباب نقصانه فيتحاشاها ويتعد عنها، ويلتمس أسباب الزيادة والنماء وصلاح القلب، كما كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم<sup>(4)</sup>، وفي هذا يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: (إِنَّ مِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَاهَدَ إِيْمَانَهُ وَمَا نَقَصَ مِنْهُ، وَمِنْ فِقْهِ الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَمْرُ دَاوُدَ هُوَ أَمْ مُتَقِصٌّ؟ وَإِنَّ مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ نَزْعَاتِ الشَّيْطَانِ أَنْتَى تَأْتِيهِ؟)<sup>(5)</sup>.

(1) الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص 79.

(2) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد الله بن عبد المحسن التركي 2/ 462.

(3) الإيمان بالله، الصلابي، ص 138.

(4) ينظر: الإيمان، أركانه حقيقته نواقضه، محمد نعيم ياسين، ص 129.

(5) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، برقم (1710)، 5/ 1016.



ينتحلها الإنسان من الدين<sup>(2)</sup>، ويؤيد هذا المعنى حديث: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ»<sup>(3)</sup>.

وقد تطلق الملة على الإسلام خاصة، قال الخليل: (الملة التي يَمَلُّ بها المسلمون أي يدينون بها)<sup>(4)</sup>، وقال أبو عبيد: (قوله ﷺ: «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ»<sup>(5)</sup>، أَرَادَ المِلَّةَ الحَنِيفِيَّةَ؛ فَلِذَلِكَ جَاءَ التَّائِيثُ كَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5]، فَهِيَ فِيْمَا يُفَسِّرُ المِلَّةَ الحَنِيفِيَّةَ)<sup>(6)</sup>.

وتطلق الملة أيضًا على الإسلام عامة، قال المناوي: (الملة: ما يدعو إليه هدى العقل المبلغ عن الله توحيده من ذوات الحنيفيين)<sup>(7)</sup>، وقال الراغب: (هي اسم لما شرعه الله لعباده على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله)<sup>(8)</sup>.

**ثالثًا: النحلة:** قال الأزهري: (انْتَحَلَ فلانٌ كَذَا وَكَذَا: مَعْنَاهُ قَدْ أَلْزَمَهُ نَفْسَهُ وَجَعَلَهُ كَالْمَلِكِ لَهُ، أُخِذَ مِنَ النَحْلَةِ وَهِيَ الْهَبَةُ وَالْعَطِيَّةُ يُعْطَاهَا الْإِنْسَانُ)<sup>(9)</sup>، واستشهد بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَاتُوا لِنِسَاءٍ صَدَّقْتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]، ويقال: (انتحله ادعاه لنفسه وهو لغيره، وانتحل فلان شعر غيره أو قول غيره ادعاه لنفسه، وفلان ينتحل مذهب كذا وقبيلة

الطعام والشراب، لكن جوعته الروحية لا يسدها إلا الاعتقاد بالله الواحد الأحد وعبادته العبادة الحقة، وأن هذا الإله الحق هو ملاذ الإنسان من المخاوف والأزمات وتفريج الكربات وتحقيق الرغبات.

### المطلب الثالث: المصطلحات ذات الصلة بالدين

أوضح هنا أهم الكلمات أو المصطلحات ذات الصلة بالدين، وهي: الدين الوضعي، الملة، النحلة، الشريعة، المنهاج، ثم أبين ما تجتمع عليه هذه المصطلحات وما تفرق فيه، وذلك فيما يأتي: **أولاً: الدين الوضعي:** يدل المصطلح على أن الشيء الوضعي هو من وضع البشر بخلاف الدين السماوي الذي هو من الله سبحانه، ومن تعريفات الدين الوضعي أنه: (مجموعة من المبادئ والقوانين العامة وضعها بعض الناس المستنيرين لأهمهم؛ ليسيروا عليها ويعملوا بما فيها، والتي لم يستندوا في وضعها إلى وحي سماوي، ولا إلى الأخذ عن رسول مرسل)<sup>(1)</sup>، فهي إذن تعاليم وقواعد اصطلاحوا عليها وساروا على منوالها كالديانات الفارسية القديمة، وديانات المصريين القدماء، والبرهمية والبوذية في الهند وشرق آسيا، وغيرها كثير.

**ثانيًا: الملة:** يتبين عند مراجعة مصادر اللغة أن الملة تطلق على معان عدة، فهي في الأصل كل ما يعتقد من دين حقًا كان أم باطلاً، قال الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف: 20]، ويؤيد هذا قول ابن دريد: (الملة: النحلة التي

(2) جهرة اللغة، ابن دريد 1 / 168.

(3) رواه الترمذي، برقم (2108)، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، وصححه الألباني.

(4) العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي 4 / 374.

(5) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، برقم (15156)، مسند جابر بن عبد الله 349 / 23، □.

(6) غريب الحديث، القاسم بن سلام 3 / 29.

(7) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص 314.

(8) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ص 773.

(9) تهذيب اللغة، الأزهري 5 / 43، والإبانة في اللغة العربية، سلمة الصُّحاري 2 / 436.

(1) الأديان والمذاهب، جامعة المدينة، ص 35.

الْمُنْهَاجُ، وَالْمُنْهَاجُ: الطَّرِيقُ أَيضًا، وَالْجَمْعُ الْمُنَاهِجُ<sup>(7)</sup>، قَالَ أَبُو عبيد: (النهج: الطريق العامر وهو الْمُنْهَاجُ)<sup>(8)</sup>، وفسر الأزهرى الصراط المستقيم بالمنهاج الواضح<sup>(9)</sup>، وقال الزبيدي: (النهج: يفتح فسكون: الطريق الواضح البين، وهو النهج محرّكةً أَيضًا، وَالْجَمْعُ نَهَجَاتٌ وَنُهْجٌ وَنُهْجٌ، وَطُرُقٌ نَهْجَةٌ: واضحة كالمَنْهَجِ بِالْكَسْرِ... وَالْمُنْهَاجُ: الطريق الواضح)<sup>(10)</sup>، وأما منهاج الدراسة ومنهاج التعليم في اللغة المعاصرة فهي محدثة، وتعني الخطة المرسومة، والجمع مناهج<sup>(11)</sup>.

## المبحث الثاني

### التاريخ ( ماهيته ، نشأته ، منهج روايته )

معلوم أنّ التاريخ سجل الحياة ومسرحها، ومقيد أحداثها وحركتها، فكان لابد من ضبط مروياته وفهم مفاصله، وكشف اللثام عن نشأته وتطوره ومعرفة مصادره، والمنهج العلمي في تدوينه، وهذا ما سأحدث عنه في هذا المبحث، فحري بنا تصحيح المفاهيم لبناء التاريخ وفلسفته على أوثق الأسس.

### المطلب الأول: التعريف بالتاريخ

#### أولاً: مفهوم التاريخ وتطوره

التاريخ لغة: من أرّخ الكتاب ليوم كذا: وقّته، والواو فيه لغة، والتورخ مثله، وأرخت الكتاب فهو مؤرخ، والتأريخ: تعريف الوقت، وتأريخ

كذا إذا انتسب إليه<sup>(1)</sup>، وتطلق النحلة على (الديانة من قولهم: هو يتحل قول فلان)<sup>(2)</sup>، فهي دين وملة اتخذت عقيدة في القلب كما تتخذ العطية<sup>(3)</sup>.

رابعاً: الشريعة: في الأصل: (مشرعة الماء، وهو مورد الشاربة، والشريعة: ما شرع الله لعباده من الدين، وقد شرع لهم يشرع شرعاً، أي سنّ، والشارع: الطريق الأعظم، وشرع المنزل إذا كان بابه على طريق نافذ، وشرعت الإهاب إذا سلخته، والشرعة: الشريعة)<sup>(4)</sup>، وأورد على ذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]،

وخصّ الفقه بعلم الشريعة، والعالم بالحلال والحرام فقيه<sup>(5)</sup>، وقال الراغب نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنه: (الشرعة: ما ورد به القرآن، والمنهاج ما وردت به السنة، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: 13]، إشارة إلى الأصول التي تساوى فيها الملل، فلا يصحّ عليها النسخ كمعرفة الله تعالى ونحو ذلك... وقال بعضهم: سميت الشريعة شريعة تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إنّ من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة روي وتطهر<sup>(6)</sup>.

خامساً: المنهاج: قال ابن فارس: (نَهَجَ: النُّونُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ: الْأَوَّلُ النَّهْجُ الطَّرِيقُ، وَنَهَجَ لِی الْأَمْرَ: أَوْضَحَهُ، وَهُوَ مُسْتَقِيمٌ

(1) الجاسوس على القاموس، أحمد فارس أفندي، ص 640.

(2) الزاهر، أبو بكر ابن الأنباري 2 / 254، وينظر: معجم لغة الفقهاء، قلنجي وآخر، ص 476.

(3) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل، د. محمد حسن جبل 4 / 2165.

(4) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري 3 / 1236.

(5) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس 4 / 442.

(6) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 450.

(7) مقاييس اللغة، ابن فارس 5 / 361.

(8) غريب الحديث، القاسم بن سلام 3 / 278.

(9) تهذيب اللغة، الأزهرى 12 / 232.

(10) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي 6 / 251.

(11) ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون 2 / 957.

المضمار<sup>(7)</sup>.

- ومن الملاحظ أن مفهوم كلمة (تاريخ) تطورت عند العرب وشملت خمسة معانٍ وهي:
- سير الزمن والأحداث، أي التطور التاريخي.
  - تحديد زمن الحدث التاريخي أو الواقعة، أي التوقيت.
  - علم التاريخ والتعريف به، وكتب التاريخ وما فيها.
  - عملية التدوين التاريخي.
  - تاريخ الرجال وسيرهم وأحوالهم<sup>(8)</sup>.

### ثانياً: أقسام التاريخ

يوضح المؤرخ بطرس أن التاريخ بشكل عام قسماً:

تاريخ مدني: وهو خاص بالإنسان، ويتنوع بحسب الوثائق التي يستخدمها من مذكرات وتراجم وتواريخ سياسية وأدبية وعلمية وفنية. وتاريخ طبيعي: وهو خاص بالطبيعة، ويتنوع إلى ثلاثة: وصف الظواهر السماوية والأرضية، ووصف المسوخ التي تكشف عن القوى الخفية في الحالات العادية، ووصف الفنون التي هي وسائل الإنسان لاستخدام القوى الطبيعية<sup>(9)</sup>.

### ثالثاً: شروط المؤرخ

وضع بعض المؤرخين شروطاً للمؤرخ، من أهمها ما يأتي<sup>(10)</sup>:

المسلمين أرّخ من زمن سيدنا محمد ﷺ، وكتب في خلافة عمر رضي الله عنه فصار تاريخاً إلى اليوم<sup>(1)</sup>.

**واصطلاحاً:** (هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك)<sup>(2)</sup>، فالتاريخ إذن يتحدث عن الأمم الماضية وأحوالها، والأشخاص وتواريخ حياتهم من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكام والمصلحين والملوك والشعراء وذكر أحوالهم وغير ذلك من أمور ومتعلقات كثيرة، فهو (يشمل جميع أخبار الماضي على أنواعها وفروعها، وأنه لا بد من الالتفات إلى الحياة الماضية من جميع نواحيها كي نحسن الإيضاح والتعليل)<sup>(3)</sup>، وهذا متوافق مع ما ذكره زريق بأنه: (السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه)<sup>(4)</sup>.

وعليه فهو دراسة التطور البشري في جميع جوانبه الفكرية والروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، أيًا كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته، وهذا يعني أن التاريخ هو المرأة التي تعكس أحداثاً وأفكاراً وأعمالاً وآثاراً، ويتخذ مجراه عن طريق الإنسان في ظروف معينة<sup>(5)</sup>.

ويجب أن يُعلم بأن التاريخ ليس دخيلاً على التفكير الإسلامي، بل هو من صلب دراساته وأصوله، كما أن المسلمين لم يقتبسوه من غيرهم<sup>(6)</sup>، بل إن علماء الحديث قد سبقوا الغرب في هذا

(1) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، حرف الألف (أرخ).

(2) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي 2/ 137.

(3) مصطلح التاريخ، د. أسد رستم، ص 128.

(4) نحن والتاريخ، قسطنطين زريق، ص 49.

(5) ينظر: تفسير مسار التاريخ، رأفت الشيخ، ص 7 - 8.

(6) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 15 و 21.

(7) ينظر: مصطلح التاريخ، د. أسد رستم، ص 3.

(8) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 28 - 29.

(9) ينظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف بطرس كرم، ص 46.

(10) ينظر: مقدمة ابن خلدون، ص 10 وما بعدها، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، السخاوي، ص 63 - 74، ومصطلح التاريخ، د. أسد رستم، ص 65.

ويلاحظ أن تاريخ ما قبل البعثة النبوية الذي ينبسطُ منتشرًا وراء سور الإسلام في الجزيرة العربية، إنما دعاه المسلمون من العرب وغيرهم، واتجهوا إلى رصده وتدوينه على هدي الإسلام الذي أخرج الناس من الجهالة إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، وعلى ضوء المعلّمة التاريخية الكبرى التي تمثّلت في مولد أفضل الوري سيدنا محمد ﷺ وسيرة حياته.

فالسيرة النبوية إذاً تُشكّل المحور الذي تدور حوله حركة التدوين لتاريخ الإسلام في الجزيرة العربية، بل هي العامل الذي أثر في أحداث الجزيرة العربية أولاً، ثم في أحداث سائر العالم الإسلامي ثانياً.

ولفن الرواية لأحداث التاريخ عند العرب والمسلمين منهجٌ علميٌ دقيقٌ لرصد الوقائع، وتمييز الصحيح منها عن غيره، لم يملك مثله غيرهم، غير أنهم لم يكونوا ليكتشفوا هذا المنهج، ولم يكونوا لينجحوا في وضعه موضع التنفيذ في كتاباتهم التاريخية لولا السيرة النبوية التي وجدوا أنفسهم أمام ضرورة دينية تحملهم على تدوينها تدويناً صحيحاً لا يشوبها وهمٌ، ولا يتسلّل إليها خلطٌ أو افتراءٌ؛ ذلك لأنهم علموا أن سيرة سيدنا رسول الله ﷺ وسنته هما المفتاح الأول لفهم كتاب الله تعالى، ثم هما النموذج الأسمى لكيفية تطبيقه والعمل به<sup>(2)</sup>.

فكان أن نهض بهم دافع اليقين بنبوة رسول الله ﷺ، وبأن القرآن كلام الله تعالى، وبأنهم يحملون مسؤولية العمل بمقتضاه، وأن الله محاسبهم على ذلك حساباً دقيقاً، نهض بهم اليقين بكل ذلك إلى تحمّل أقصى الجهد في سبيل الوصول إلى منهج

(2) ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري 1/ 21-11.

(1) العدالة مع الضبط التام الناشئ عنه مزيد الإلتقان، لاسيما ما يتعلق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(2) أن يكون عالماً بطريق النقل حتى لا يجزم إلا بما يتحققه، عارفاً بما يقبل وما يردُّ من الأخبار.

(3) تجنب التعريض بحق الصحابة الكرام في الوقائع التي حصل فيها تأويل واختلاف.

(4) أن يكون عارفاً بمقادير الناس ومنازلهم، فلا يرفع الوضيع، ولا يضع الرفيع.

(5) أن يكون صادقاً تقياً ورعاً لا يأخذ بالظن والتوهم.

(6) أن يتمتع بحواس سليمة وعقل صحيح.

(7) أن يتعد عن ميوله الشخصية وأغراضه النفسية، فإنها قد تؤثر عليه من حيث لا يقصد، فيظن أنه يروي الحقيقة وهو في الواقع بعيد عنها.

ويجب على المؤرخ أن يكون وصياً على تراثنا التاريخي في كل مجالاته، حريصاً على النتائج المفيدة، معززاً تفسيراته بالمعاصرة والتطور، وبهذا يثبت مركزه كمؤرخ أتى بجديد.

### المطلب الثاني: نشأة علم التاريخ ومصادره

#### أولاً: علاقة التاريخ بالسيرة النبوية

لا ريب أن سيرة سيدنا محمد ﷺ تُشكّل الركيزة الأساسية لحركة التاريخ العظيم الذي يعتزُّ به المسلمون على اختلاف لغاتهم وأقطارهم.

وانطلاقاً من هذه السيرة العطرة دوّن المسلمون التاريخ؛ ذلك لأن أول ما دوّنه الكاتبون المسلمون من وقائع التاريخ وأحداثه، هو أحداث السيرة النبوية، ثم تلا ذلك تدوين الأحداث التي تسلسلت على إثرها إلى يومنا هذا<sup>(1)</sup>.

(1) ينظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل السلمي، ص 326-338.



عن أسلافهم من الصحابة عليهم السلام، وكان البادئ بهذا أبان بن الخليفة عثمان رضي الله عنه (ت: 101 هـ)<sup>(3)</sup>، ثم عروة بن الزبير بن العوام (ت: 94 هـ)<sup>(4)</sup>، وهما من أبناء أشراف العرب وكبرائهم، فمكّنتهما قربتهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجمعاً من الأخبار والأسانيد ما لم يجمع غيرهما؛ ولذلك يُمكن عدّهما مؤسسي تاريخ السيرة في الإسلام.

3 - ثم تواتر الكاتبون فيه بعدهما، من أمثال: وهب بن منبه (ت: 110 هـ)<sup>(5)</sup>، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت: 120 هـ)<sup>(6)</sup>، ثم محمد بن شهاب الزهري (ت: 124 هـ)<sup>(7)</sup> وتلاميذه الذين من أعظمهم شأنًا: محمد بن إسحاق بن يسار الآتي ذكره، صاحب السيرة المشهورة.

فإن هؤلاء يُعدّون بلا ريب في مقدّمة من اهتموا بكتابة السيرة النبوية، كما تُعدّ كتاباتهم طليعة هذا العمل العلمي العظيم، بل تُعدّ الخطوة الأولى في ذلك، هذا بقطع النظر عن أن الكثير من أحداث السيرة منشور في كتاب الله تعالى، وفي بطون

---

(3) روى عن أبيه عثمان رضي الله عنه، وكان ثقة وله أحاديث، وأقرّه عبد الملك واليًّا على المدينة، وبقي سبع سنين، توفي في خلافة يزيد بن عبد الملك. (ينظر: الطبقات الكبير، ابن سعد، تحقيق: علي محمد عمر 7 / 150-151).

(4) كان بحرًا في العلم، فقيهاً يحدث في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يصوم الدهر، أصابته الأكلة في رجله فقطعت. (ينظر: المصدر نفسه 7 / 177).

(5) كان عالمًا صاحب حكمة، كثير العبادة، واسع العلم، توفي في أول خلافة هشام بن عبد الملك. (ينظر: المصدر نفسه 8 / 102-103).

(6) روى عنه محمد بن إسحاق وغيره من أهل العلم، وكان ثقة كثير الحديث عالمًا، كان يحدث بالمغازي والسير في مسجد دمشق، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك. (ينظر: المصدر نفسه 7 / 415-416).

(7) للتوسع عن الزهري وجهوده في السيرة والتاريخ ينظر: الإمام الزهري وأثره في السنة، حارث سليمان الضاري، ص 176 وما بعدها.

علميُّ تُحصّن فيه حقائق السيرة والسنة النبوية. يتبيّن لنا مما سبق: أن كتابة السيرة النبوية، كانت البوابة العريضة المهمة التي دخل منها المسلمون إلى دراسة التاريخ وتدوينه عمومًا، وأن القاعدة العلمية التي استعانوا بها لضبط الروايات والأخبار، هي ذات القواعد التي أبدعتها عقول المسلمين، شعورًا منهم بالحاجة الماسّة إلى حفظ مصادر الإسلام وينايعه الأولى من أن يصيبها أي دخیلٍ يعكّره<sup>(1)</sup>.

### ثانيًا : نشأة علم التاريخ

تقدم أن السيرة النبوية هي الركيزة الأساس في كتابة التاريخ، وعلى هذا فإن نشأة علم التاريخ بدء من هذه النقطة، وفيما يأتي بيان ذلك حسب التدرج التاريخي:

1 - أول ما نشأت السيرة العطرة كانت أحاديث تُدار في مجالس خاصّة حول مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيسأل بعض الولاة أو الأعيان في الأمصار الإسلامية الكبرى كالمدينة ودمشق عالمًا ممّن اشتهر بالحفظ والرواية عن أحداث السيرة، فيحدث القوم بما يعلم من ذلك، مُسنِّدًا الحديث إلى من أفاده به من الصحابة عليهم السلام، وكانت تلك الأحاديث أحيانًا تفسيرًا لبعض الآيات التي تضمّنت شيئًا من تاريخ الوقائع وغزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل: بدر وأحد وحنين، وكان بعض هؤلاء الرواة يزيد على بعض في جملة الأخبار وتفصيلها، أو في دقّة الإسناد، على حسب المصادر التي أمّدت<sup>(2)</sup>.

2 - ثم تقدّمت السيرة خطوة، إذ دوّن بعض هؤلاء الحفّاظ - وكلّهم من التابعين - ما ورثوه رواية

(1) ينظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل السلمي، ص 305-310.

(2) ينظر: المغازي الأولى ومؤلفوها، المستشرق يوسف هوروفتس، ترجمة: حسين نصّار، ص 5.

مهذباً منقحاً، ولم يكن قد مضى على تأليف ابن إسحاق له أكثر من خمسين سنة، وفي ذلك يقول ابن خلّكان: (وابن هشام هذا، هو الذي جمع سيرة رسول الله ﷺ من المغازي والسيرة لابن إسحاق، وهذبها ولخصها، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس، والمعروفة بسيرة ابن هشام)<sup>(6)</sup>.

6 - تنوع كتاب السيرة الشريفة بعد ذلك، فكان بعضهم يقتصر على تدوين أخبار المغازي، وتوسع بعضهم بذكر المبعث والوحي، وأضاف بعضهم ما لاقى رسول الله ﷺ في مكة، وبعضهم ذكر تاريخ الهجرة، واتجه بعضهم إلى ذكر ما قبل مبعثه ﷺ، وذهب بعضهم إلى ذكر مبدأ الرّسالات قبل النّبي ﷺ وقصص الأنبياء السابقين<sup>(7)</sup>، وبهذا التدرج التاريخي كانت الركيزة لنشأة علم التاريخ.

### ثالثاً: مصادر علم التاريخ

اهتم المسلمون بالتاريخ اهتماماً عظيماً، وعملوا على رصد حركة التاريخ منذ بدء الخليقة في جميع الحقول والميادين، ونوعوا الكتابة التاريخية وصنفوها حتى شملت جميع أنشطة الحياة، ورجعوا إلى المصادر التي أمدتهم لكتابة هذا التاريخ المجيد، وفيما يأتي نلقي الضوء على أهم هذه المصادر:

1. القرآن الكريم: وهو مصدر أصيل ومنهج كامل في التعامل مع التاريخ البشري، حيث جعل الإنسان محوراً، ومسيرة الثقافة الإنسانية معياراً له، وجاء القرآن الكريم بمعطياته التاريخية ليحرك

(6) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلّكان، تحقيق:

محمد محيي الدين عبد الحميد 1/ 290. وينظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، السخاوي، ص 88.

(7) ينظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل السلمي، ص 320-323.

كتب السّنة الشريفة التي تهتم من سيرته ﷺ بأقواله وأفعاله، لاسيما ما يتعلّق منها بالتّشريع<sup>(1)</sup>.

4 - جاء في الطّبعة التي تلي هؤلاء من تلقف كلّ ما كتبوه، فأثبتوا جلّه في مدوّناتهم، وكان في مقدّمة هذه الطّبعة: محمّد بن إسحاق (ت: 151 هـ)، وقد اتّفق الباحثون على أنّ ما كتبه يُعدّ من أوّثق ما كُتب في السّيرة النّبويّة في ذلك العهد، وكان صاحب منهج كامل في تدوين السيرة، سمع منه أهل الكوفة والجزيرة وأهل الري وأهل بغداد، وكان كثير العلم، كثير الحديث، وكتب عنه العلماء<sup>(2)</sup>، وكان من المحدثين، ويُعدّ ما كتبه رأس التّأليف في هذا النّوع من التّاريخ<sup>(3)</sup>، وقفى على آثاره الواقديّ (ت: 207 هـ)<sup>(4)</sup>، وتلميذه ابن سعد (ت: 230 هـ)<sup>(5)</sup> فيما كتبا من سيرة النّبي ﷺ.

5 - ثم جاء عبد الملك المعروف بابن هشام (ت: 213 أو 218 هـ) فروى لنا كتابه هذا

(1) ينظر: مفتاح السّعادة ومصباح السّيادة في موضوعات العلوم، طاش كبرى زاده، 1/ 283، وأبجد العلوم، القنوجي 2/ 137.

(2) ينظر: الطّباقات الكبير، ابن سعد 7/ 552.

(3) ينظر ما كتبه ابن سيّد الناس في مقدّمة كتابه عيون الأثر عن ابن إسحاق وترجمته وتوثيقه.

(4) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد، إخباري جامع، ألف كتباً كثيرة في التاريخ، منها: المغازي، والطبقات، وفتوح الشام، وغيرها، ولا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة رغم ضعفه في الحديث. (ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي 9/ 454 - 455).

(5) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري أبو عبد الله مولى بني هاشم (ت: 230 هـ): صاحب الواقدي، كان من أهل الفضل والعلم، وصنف كتاباً كبيراً في طبقات الصحابة والتابعين والخلفين إلى وقته، فأجاد فيه وأحسن، توفي ببغداد. (ينظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، 3/ 266، وينظر للتوسع: ابن سعد منهجه وموارده في كتابه الطبقات الكبرى: للباحث، ص 50 فلما بعدها).

3. التفسير الإسلامي للتاريخ: حيث ينطلق من الكتاب والسنة، وينفرد عن سائر التفاسير بأنه يعطي للبعد الغيبي - ماضياً وحاضراً ومستقبلاً - مساحات واسعة، ويجعله في مقدمة الشروط للإيمان بالله ﷻ الذي يوحى إلى أنبيائه ورسله تعاليم السماء، وعواقب الإيمان بالبعث والحساب والجزاء، ويحذر من الطغيان والجبروت الذي يؤدي إلى الكفر والتمرد على نظام الكون، ثم الوقوع تحت مطارق العقاب<sup>(3)</sup>، ولذلك يؤكد القرآن الكريم على المسألة الغيبية، ويجعلها أول صفة من صفات المتقين كما في أوائل سورة البقرة، والتسليم الغيبي سبب لسعادة الإنسان أو شقائه فضلاً عن كونه تفسيراً إلهياً لأحداث الكون الذي يملكه الله بعلمه الواسع، ولا سبيل إليه إلا بالاستجابة المطلقة لله ﷻ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65].

4. أيام العرب: فقد نشأ التاريخ نشأة طبيعية انبثقت من ظروف حياة العرب في البيئة العربية التي ظهر فيها الإسلام، وتناقلوا بالروايات الشفهية طبيعة المجتمع القبلي في بلاد العرب، وما يسوده من المفاخرة بالأحساب والأنساب والمعارك والخصوم، مما عُرِفَتْ بأيام العرب التي كان لها تأثير كبير، ومصدر من مصادر تاريخهم، فضلاً عن كونها حفظت أنسابهم إلى حد كبير<sup>(4)</sup>.

5. الشعر العربي: إذ كان الشعر ديوان العرب، وشكل مدونة تاريخية لحياتهم قبل الإسلام، كما كان سجلاً تاريخياً للمفاخرات والقصائد والمعلقات، وما تضمنتها من أنسابهم وأمجادهم وعصبيتهم وانتمائهم، وكم سارت الأشعار سير النار في الهشيم، وكانت وقوداً لحرب البسوس وداحس والغبراء!

الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام، ويبعده عن المزالق والمتعرجات التي أودت بمصائر الأمم والجماعات نحو الهاوية السحيقة<sup>(1)</sup>، وقد قال الله ﷻ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، كما بين القرآن الكريم الهدف من إيراد القصص بالسعي الحثيث للبحث عن الحق، وتقديم الأدلة على السنن والنواميس التي تُسير القصص ودلالاتها على حركة التاريخ فقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43]، ورسم القرآن سنة التدافع، وتداول الدول، وغلبة بعضها على بعض فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوْمِعُ وَيَعُجُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40]، ويبقى الهدف البعيد من كل ذلك، وهو خضوع الكون كله بالعبودية الخالصة لله ﷻ.

2. السنة النبوية: تتصل السنة النبوية بالتاريخ اتصالاً وثيقاً، حيث بينت أحاديث النبي ﷺ كثيراً من الأخبار التاريخية، وكان أصحاب النبي ﷺ خيرة الرواة لمصادر المعلومات عن النبي ﷺ، حيث شاهدوه ونقلوا أعماله وأقواله وأحواله، واعتنى علماء المسلمين فيما بعد بجمع الأحاديث النبوية، ومنها الرواية التاريخية كفرع من علم الحديث المنضبط بالإسناد والمتن، وهو ضابط لا يوجد عند الأمم الأخرى في ضبط الروايات التاريخية<sup>(2)</sup>، وبهذا تُعدُّ السنة النبوية مصدراً أساسياً للتاريخ بعد كتاب الله ﷻ.

(3) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 276.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 276 - 277.

(1) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 271 - 275.

(2) ينظر: المصدر نفسه، ص 83 و 284 - 285.

## ثانيًا: منهج كتابة التاريخ

إن أهم طرائق هذا المنهج ما يأتي:

(1) السماع والنقل الشفهي: حيث يستمد المؤرخ معلوماته عن هذا الطريق، وممن صنع ذلك محمد بن الحارث الخشني (ت: 361 هـ) في كتابه (قضاة قرطبة وعلماء أفريقيا)، وابن خلكان (ت: 681 هـ) في كتابه (وفيات الأعيان)، ومن ذلك أيضًا طريقة الاتصال الشخصي كما في ترجمة بهاء الدين يوسف بن شداد (ت: 633 هـ) المؤرخ لصالح الدين الأيوبي حينما ألف سيرته في كتابه: (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).

(2) المعاينة والمشاهدة: فقد كان المسعودي<sup>(4)</sup> يناقش بعض المعلومات الجغرافية التي ذكرها الجاحظ<sup>(5)</sup> من غير اعتماد على الرؤية، وكان الواقدي (ت: 207 هـ) يسأل أبناء الصحابة وأبناء الشهداء أو مواليتهم عن مكان القتل أو الواقعة، بل كان يمضي إلى الموضع ليتحقق ويعاين<sup>(6)</sup>.

وانتقد السخاوي محمد بن أبي الأزهر<sup>(7)</sup> في أمور ذكرها في تاريخه ولم يشاهدها<sup>(8)</sup>، وهذا يؤكد حرص

وهكذا كان الشعر مصدرًا لتاريخ العرب، كما أنه أغنى اللغة العربية بحصيلة لغوية غنية<sup>(1)</sup>، وتقدم أن الشعر كان مصدرًا من مصادر السيرة، وهكذا نرى أن المصادر التاريخية قد تنوعت وتشعبت لتصب في مجرى التاريخ العربي والإسلامي.

## المطلب الثالث:

## المنهج العلمي في تدوين التاريخ

## أولاً: المقصود بالمنهج العلمي

يقصد بالمنهج العلمي: القواعد الحديثة، فمن المعلوم أن ذلك إنما وجد أولاً لخدمة السنة المطهرة التي لا بد أن تكون السيرة النبوية قاعدة لها، ثم إنه أصبح بعد ذلك منهجًا لخدمة التاريخ عمومًا، وميزانًا لتمييز حقائقه عن الأباطيل التي قد تعلق به<sup>(2)</sup>، وعلى هذا يراد بالمنهج طريقة البحث التي يتوصل بها إلى معرفة صدق الواقعة، ومعلوم أن المسلمين هم بناة المنهج لمباحث التاريخ، وهم رواده الأوائل.

ويرى المتأمل في تدوينهم أخبار التاريخ أنهم تسلحوا بعدة أسلحة من أجل الوصول إلى الحقيقة<sup>(3)</sup>، وتبين أنهم كانوا محققين لا مجرد نقل، لذا نقلوا التفاصيل الدقيقة في أخبار الإسلام وأهله ودوله، وحافظوا على سلسلة الرواة وأحوالهم، بل عرضوا الأخبار المتعلقة بالأمم السابقة على الكتاب والسنة باعتبارهما أدق المصادر في تدوين التاريخ، وقاموا بالمحاكمة العقلية للحوادث المدونة حتى تكون منضبطة بضوابط الواقع التاريخي.

(4) هو أبو الحسن علي بن الحسين (ت: 346 هـ)، كان معتزليًا، ويرجع نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وله من الكتب: مروج الذهب، وذخائر العلوم، والاستذكار لما مر في سالف الأعصار، وغيرها (ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف 7/ 829).

(5) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري (ت: 250 هـ)، متكلم معتزلي، واسع النقل كثير الاطلاع، من كتبه: البيان والتبيين، والبخلاء، والحيوان، وغيرها. (ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي 5/ 1193).

(6) ينظر: الطبقات الكبير، ابن سعد 1/ 251.

(7) هو أبو بكر محمد بن يزيد بن محمود بن منصور الخزازي البغدادي (ت: 325 هـ)، (ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي 15/ 41 - 42).

(8) ينظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، السخاوي، ص

(1) ينظر: المصدر نفسه، ص 277 - 278.

(2) ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري 1/ 29.

(3) ينظر: مصطلح التاريخ، د. أسد رستم، ص 12 وما بعدها.



(5) الجمع بين أكثر من طريقة: فابن سعد (ت: 230هـ) استخدم في طبقاته موارده الشفهية عن شيوخه المباشرين، واستخدم أيضاً موارده الخطية<sup>(5)</sup>، واستخدم المقرئ (ت: 845هـ) في خططه الطرق الثلاثة المعتمدة في الأخبار، وهي الرواية الشفهية، والخطية، والمعاينة والملاحظة<sup>(6)</sup>. وهكذا نرى أن المنهج التاريخي عند المسلمين نابعاً من الذات العربية الأصيلة في مفرداته<sup>(7)</sup>، ومعتمداً على صحة النقل تحقيقاً وأمانة في خصائصه<sup>(8)</sup>، وملتزمًا بمنهج المحدثين في أصالته، كما أنه استلهم للخلف بمأثور السلف<sup>(9)</sup>.

#### ثالثاً: أسباب ورود الخطأ التاريخي:

تتبع ابن خلدون وغيره أخطاء المؤرخين، وقيدوا أسبابها بما يأتي:

1. شخصية المؤلف وميوله وأهواؤه، ومدى سيطرة هذه الميول على أحكامه التاريخية.
2. تقرب المؤلف إلى ذوي الجاه والسلطان فينسب إليه ما ليس فيه مدحاً وثناءً.
3. عدم مراعاة البيئة الزمنية، والتطور في الأشخاص والأوقات حيث ذكر أن عدد جيش بني إسرائيل في التيه كان (600) ألفاً! ولا يمكن أن يتوفر هذا العدد أبداً<sup>(10)</sup>.

(5) ينظر: ابن سعد منهجه وموارده في كتابه الطبقات الكبرى، للباحث، ص 228.

(6) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 222 - 223.

(7) ينظر: المنهجية التاريخية في العصر العباسي، رشاد حسن، ص 95.

(8) ينظر: التاريخ والمؤرخون إلى نهاية العصر العباسي، عبد الله عبد الرحمن، ص 227.

(9) ينظر: التفسير الإسلامي للمنهج التاريخي، خير الدين فرج، ص 76.

(10) المقدمة، ابن خلدون، ص 10 وما بعدها.

بعض المؤرخين على منهجية المعاينة والملاحظة بضوابطها<sup>(1)</sup>.

الإسناد والعنونة: وهو ما اتبعه مؤرخو الطبقات والتراجم الأولون كالذي نجده في طبقات ابن سعد (ت: 230هـ)، إذ هو من أوائل المؤلفين في السير والمغازي، فجرى في الإسناد على طريقة أهل الحديث، وتبعه الخطيب البغدادي (ت: 463هـ) في تاريخ بغداد، وابن الجوزي (ت: 597هـ) في المنتظم، والذهبي (ت: 748هـ) في تاريخ الإسلام، وغيرهم<sup>(2)</sup>.

(3) الوثائق والنقود والنقوش: فقد استخدمت الوثائق القديمة في خطابات السلاطين دينية كانت أو قانونية، وهي تساوي الرسائل الرسمية لوزراء الخارجية في الوقت الحاضر، وكذا النقوش الطينية كما في الكتابة المسامرية، وقد أورد الأزرق المكي (ت: 222هـ) صاحب (أخبار مكة) نقوشاً دقيقة بالعربية على أبنية مكة المكرمة<sup>(3)</sup>.

(4) سرد الأخبار والحوادث دون ذكر السند: وذلك طلباً للاختصار والتخلص من الإسناد والعنونة والرواة، ولكن يذكر المؤلف في مقدمة كتابه من نقل عنهم من المصنفين والمؤرخين، وممن فعل ذلك اليعقوبي (ت: 284هـ) في تاريخه، وابن حجر (ت: 852هـ) في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، وابن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ) في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب<sup>(4)</sup>، وغيرهم.

157.

(1) ينظر: مصطلح التاريخ، د. أسد رستم، ص 66.

(2) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 221.

(3) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 214 - 215.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص 223.

بما يؤدي إلى إصلاح المعاش والمعاد والعمل به، وحكمة نظرية: المقصود منها ما حصل بالنظر<sup>(4)</sup>. والترابط وثيق بين الحكمة والفلسفة، إذ كلاهما من العلوم العقلية التي تسمى بمجموعها علوم الفلسفة والحكمة<sup>(5)</sup>، وبين الشهرزوري أن معرفة أعيان الموجودات إذا أدركت بزمن يسير من غير تعلّم بشري وكان مأمورًا بها من الملأ الأعلى لإصلاح النوع الإنساني فهي نبوة، وإذا كانت بالتعلّم والدراسة والنظر فهي فلسفة<sup>(6)</sup>.

- الفلسفة اصطلاحاً: اختلفت تعبيرات المؤرخين حول مفهوم الفلسفة؛ لأنها تعبر عن وجهات نظر المفكرين عن الطريقة المثلى لدراسة الفلسفة في زمن من الأزمان، متأثرة بآراء ومعتقدات الفيلسوف وبيئته وعصره، إذ تطوّر معنى الفلسفة بتتابع المدارس الفكرية وتغير الظروف السياسية، ونعرض ذلك فيما يأتي:

1. نظر الأوائيل كأرسطو<sup>(7)</sup> إلى الفلسفة على أنها تفسير حقائق الوجود والوقوف على طبائع

(4) المصدر نفسه، ص 31.

(5) ينظر: المقدمة، ابن خلدون، ص 399. وعلوم الفلسفة والحكمة سبعة: المنطق، والتعاليم، ثم الهندسة، ثم الهيئة، ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات. (ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مقدمة المحقق، ص 32).

(6) ينظر: نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة، شمس الدين الشهرزوري 1/ 23.

(7) أرسطو طاليس Aristotle (384 - 322 ق. م): فيلسوف منطقي يوناني، سمي بالمعلم الأول، يعتقد أن الفلسفة نشأت على يد اليونان، وأطلق اصطلاح فلسفة على العلم بأعم معانيه، فالعلم النظري يبحث في الطبيعيات والرياضيات والإلهيات، والعمل يتناول الأخلاق والسياسة بعلمها الأولى، أو علم الوجود بما هو كذلك، مجرداً من كل تحديد أو تعيين. (ينظر: مناهج البحث في العلوم السياسية، محمد محمود ربيع، ص 35).

4. ما أملاه حقد الخصوم على الإسلام والمسلمين، فقاموا بتشويه معالمه، وطمس جماله وفضله، بشتى ألوان الكذب والافتراء.

5. تأخر تدوين التاريخ، فتاريخ العرب الخاص دُون أيام الأمويين، وتاريخهم العام دُون أيام العباسيين، وكان هذا التأخر سبباً لدس المغرضين في التاريخ.

6. الخلط وعدم التمييز في نقل الأخبار تأثراً بمذهب ديني، أو انتصاراً لفكرة سياسية، أو طمعاً في عطاء دنيوي<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن الأسباب كثيرة، والأمثلة أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه إشارات سريعة.

### المبحث الثالث

#### دلالات الفلسفة وفلسفة التاريخ

##### المطلب الأول: الفلسفة

أتحدث في هذا المطلب عن مفهوم الفلسفة، وموضوعها ونظرياتها وتطورها.

##### أولاً: مفهوم الفلسفة:

- الفلسفة لغة: في الأصل كلمة يونانية تتألف من مقطعين: (فيلو philo)، بمعنى الإيثار والحب، و(سوفيا sophia)، بمعنى الحكمة، والفلسفة هي: (حب الحكمة)، والفيلسوف هو: (محب الحكمة)<sup>(2)</sup>.

والحكمة هي: (علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية، وهي من العلوم العقلية)<sup>(3)</sup>، وتقسم الحكمة إلى قسمين: (حكمة عملية: وهي العلم

(1) ينظر: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم علي شعوط، ص 9 - 11.

(2) ينظر: مدخل إلى الفلسفة، إمام عبد الفتاح، ص 31.

(3) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 31.

خاصةً وإنما هي علم المبادئ العامة، يعني: أنها علم للأصول التي هي أسمى ما في العلوم، وإذن فالفلسفة عند ديكارت يدخل فيها علم الله وعلم الطبيعة وعلم الإنسان لكن دعامة الفلسفة عنده إنما هي في الفكر المدرك لذاته والذي هو في ذاته مدرك الموجود الكامل أي: الله منبع كل وجوداً والضامن لكل حقيقة<sup>(5)</sup>.

3. تنطلق الفلسفة الإسلامية من الدين، وتنصبُّ على قضايا الإيمان بوجود الله وبعثة النبي ﷺ والوحي واليوم الآخر وغير ذلك، وهذا لا يعني أن المفكر الإسلامي يترك أسلحة العقل والمنطق في تدعيم الإيمان إذ إن الإسلام مرّ بكيفية الديانات بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: مرحلة التصديق القلبي والإيمان بالعقائد والأصول.  
- المرحلة الثانية: مرحلة البحث النظري والتدليل العقلي في قالب فلسفي للدفاع عنها بسلح المنطق والحجة<sup>(6)</sup>.

#### ثانياً: نشأة الفلسفة

لم تدخل الفلسفة في الصدر الأول في علوم المسلمين، وأمّا الروم فكان لهذه لعلوم عندهم شأن عظيم، ويزعمون أن سند تعليمهم يتصل بلقمان الحكيم، وفي عصر أبي جعفر المنصور كتب إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب الفلسفة مترجمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس<sup>(7)</sup> وبعض كتب الطبيعيات،

(5) ينظر: ديكارت مبادئ الفلسفة، عثمان أمين، ص 12.

(6) ينظر: ماهي الفلسفة، حسين علي، ص 92.

(7) إقليدس Euclide: عالم رياضيات يوناني من القرن الثالث الميلادي، أسس مدرسة الإسكندرية الرياضية، وقد أثر بشكل بالغ في الفكر الرياضي حتى القرن التاسع عشر بفضل كتابه: العناصر Elements، وتنص فرضية إقليدس على أنه: انطلاقاً من نقطة من المسطح

الأشياء، ووضع منهج عقلي يقوم على التعليل المنطقي والبرهان العقلي<sup>(1)</sup>.

ويقال إن فيثاغورس<sup>(2)</sup> أول من أطلق كلمة (محبى الحكمة) على أولئك الذين اقتصروا على دراسة طبيعة الأشياء، وتركوا ما عدا ذلك من ألوان المعرفة<sup>(3)</sup>.

2. ويرى ديكارت<sup>(4)</sup> أن الفلسفة هي دراسة الحكمة، والحكمة علم واحد كلي، وهي تفسير جامع للكون، أو هي نظام شامل للمعرفة البشرية، وليست الفلسفة مجرد مجموعة معارف جزئية

(1) ينظر: مناهج البحث في العلوم السياسية، محمد محمود ربيع، ص 35.

(2) فيثاغورس Pythagoras: فيلسوف يوناني من القرن السادس الميلادي، وقد أسس مدرسة تعرف باسمه، وهو يعتمد على أن جوهر الأشياء العدد، ويقسم أتباعه العدد إلى فئتين: العدد الفردي والعدد الزوجي، فالأول هو المحدود، والثاني هو اللامحدود، ثم ربطوا هذه الفرضيات بالمذهب الأخلاقي فقالوا: إن المحدود هو الخير، بينما اللامحدود هو الشر، وقالوا: إن النفس الإنسانية عبارة عن انسجام عددي، وكانوا يعتقدون بتناسخ الأرواح. (ينظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص 69).

(3) ينظر: ما هي الفلسفة، حسين علي، ص 13.

(4) رينيه ديكارت René Descartes (1596-1650 م): فيلسوف فرنسي تأثر تأثراً عميقاً بدراساته الرياضية، وأقام فلسفته على أساسين: الحدس والاستنباط العقلي، فهو صاحب المنهج العقلي في الفلسفة الأوربية الحديثة التي تعدّ الفلسفة بأنها المبادئ الأولى وأنها علم العلوم، ومنها تتفرع كل العلوم الأخرى، ومن جملة ما استهدفت فلسفته: تحديد العلاقة بين العلم اليقيني وبين الموجود الأعلى أي الله، وذلك بإيجاد ميثاقين يتكفل بحل المشاكل القائمة بين الدين والعلم، من كتبه: القواعد لتوجيه العقل، المقال عن المنهج. (ينظر: النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التجريبي العربي في التعامل معها دراسة نقدية، حسن الأسمرى، ص 159).

وكان لسوق الفلسفة والحكمة رواجٌ في الروم أيضاً بعد الفتح الإسلامي إلى أواسط الدولة العثمانية، وكان في عصرهم فحولٌ ممن جمع بين الحكمة والشرعة كالعلامة شمس الدين الفناري<sup>(4)</sup>، والفاضل قاضي زاده الرومي<sup>(5)</sup> وغيرهما<sup>(6)</sup>.

### ثالثاً: موضوع الفلسفة ونظرياتها

تتناول الفلسفة ثلاثة موضوعات:

1 - الله ﷻ: وتسمى بالفلسفة الإلهية أو اللاهوت الطبيعي، ويمهد له بعلم الفلسفة الأولى أو علم المبادئ الأولية.

2 - الطبيعة: وتنقسم على علم الطبيعة: وهي العلل الفاعلة والمادية، وعلم ما بعد الطبيعة: وهي العلل الصورية والغائية.

3 - لإنسان: وتنقسم هذه الفلسفة على ما يتناول الجسم: وهو العقل والمنطق والإرادة، وما يتناول النفس: وهو العلاقات الاجتماعية

وقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها، ولما تولى الخلافة المأمون كتب إلى بعض ملوك النصارى يطلب منه خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، وأول من أدخل الفلسفة إلى الأندلس أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، كان يشبه بالمأمون العباسي في طلب الكتب الفلسفية<sup>(1)</sup>.

وأول من خلط المنطق بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي، فقد حاول الجمع بين الشريعة والحكمة، وهو أحسن من جمع بينهما، ويتجلى ذلك في كتابه الكبير (إحياء علوم الدين)، وكتابه الإحياء قمة في الإنتاج العلمي، وبين أبو المظفر سبط ابن الجوزي أن (الإحياء) وضعه الغزالي على مذاهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه، فأذكروا عليه ما فيه من الأحاديث التي لم تصح<sup>(2)</sup>.

ثم فشت الفلسفة وانتشرت، وكان ابتداء فشوها في المتأخرين ما ذكره الحافظ ابن كثير في تأريخه سنة 672 هـ، حيث بين أنه: بعد أخذ التتار بغداد سنة (656 هـ) عمل الخوارج نصير الطوسي الرصد، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة، لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم، ودار طب فيها للحكيم درهمان، وصرف لأهل دار الحديث لكل محدث نصف درهم في اليوم، ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر<sup>(3)</sup>.

(4) هو شمس الدين حسن بن محمد شاه بن محمد بن حمزة الفناري (ت: 886 هـ)، إمام علامة محقق حسن التصنيف من علماء الدولة العثمانية، فقيه حنفي ومفسر، ولد ونشأ ببلاد الروم، كان عالماً فاضلاً صالحاً، برع في الكلام، والمعاني، والعربية، والمقولات، وأصول الفقه. (ينظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة من القرن الأول إلى المعاصرين مع دراسة لعقائدهم وشيء من طرائفهم، جمع وإعداد: وليد بن أحمد الزبيري وآخرون / 1 - 738 - 739).

(5) هو أحمد بن محمد المولى شمس الدين الألوسي، الحنفي الشهير بقاضي زاده أحد الموالى الرومية (ت: 988 هـ)، ولي قضاء حلب، ثم ترقى حتى صار مفتياً بإستنبول، وله حاشية على الهداية، ومحاكمات بين صدر الشريعة، وابن كمال باشا في شرح الوقاية، ورسائل أخرى. (ينظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، نجم الدين الغزي، تحقيق: خليل المنصور / 3 - 99).

(6) ينظر: كشف الظنون: حاجي خليفة، 1 / 676.

لا يمكن أن نقيم سوى خط واحد مواز لخط مستقيم، وهي برأي العلماء أول دليل تاريخي على موقف رياضي سليم. (ينظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص 69).

(1) ينظر: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصبهاني، مقدمة المحقق، ص 32 - 33.

(2) ينظر: كشف الظنون: حاجي خليفة، 1 / 14.

(3) ينظر: البداية والنهاية: ابن كثير، تحقيق: علي شيري، 13 / 249.



والسياسية<sup>(1)</sup>.

● **نظرية القيم Axiology:** وتبحث في المثل العليا أو القيم المطلقة، وهي: المنطق والأخلاق والجمال من حيث ذاتها لا باعتبارها وسائل لتحقيق غايات، فعلم المنطق يضع القواعد التي تعصم العقل من الزلل، أي فيما ينبغي أن يكون عليه التفكير السليم، وعلم الأخلاق يبحث في المثل العليا التي ينبغي على الإنسان مراعاتها، أما علم الجمال فيقرر المستويات التي يقاس بها الشيء الجميل، وتؤلف هذه العلوم المعيارية الثلاثة ما يسمى بالأكسيولوجي، أي فلسفة القيم.

#### رابعاً: تطور مفهوم الفلسفة

إن مفهوم الفلسفة قد تطور مع الزمن والبيئة والشخصيات الفلسفية، ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي:

- **مفهوم العصر القديم:** تأثر مفهوم الفلسفة في العصور القديمة من حيث تضيق مجالها ليقصر على جوانب النشاط العقلي فقط دون الروحي، فقد اعتقد أرسطو أن الفلسفة نشأت على يد اليونان وأنها ترجع إلى طاليس الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس ق. م. كما أن لفلسفة الشرق القديم حضور في هذه الحقبة التاريخية، وأن أهم ما يميز الفكر الفلسفي القديم هو التماس المعرفة لذاتها، وسعي العقل إلى كشف الحقيقة بياث اللذة العقلية وليس لإشباع أغراض عملية أو غايات دينية.

- **مفهوم العصر الوسيط:** استمر لدى بعض مفكري العصور الوسطى المفهوم اليوناني القديم للفلسفة كـرغبة في التماس الحقيقة لذاتها إلا أن الجديد فيها هو التفريق بين العلم الذي يهتدي إليه العقل بالنظر، وبين المعرفة التي ينزل بها الوحي الإلهي، وصار الطابع المميز لهذه الفلسفة

ويشتمل موضوع الفلسفة على ثلاث نظريات هي: الوجود والمعرفة والقيم، وبيانها بما يأتي<sup>(2)</sup>:

● **نظرية الوجود Ontology:** وهو ما أسماه القدماء ما بعد الطبيعة وهو مرادف للاصطلاح الذي استعمل فيما بعد وهو ميتافيزيقا، وتهتم هذه النظرية بالنظر في طبيعة الوجود على الإطلاق فإن العلوم الجزئية تبحث في الوجود من بعض نواحيه، فمثلاً تبحث العلوم الطبيعية في الوجود من حيث هو جسم متغير، وتبحث العلوم الرياضية في الوجود من حيث هو كم أو مقدار، أي: تركز تلك العلوم على ظواهر الوجود في حين يهتم بمبحث الوجود بالخصائص العامة للوجود، بمعنى: أنه يبحث في الوجود في ذاته مستقلاً عن أحواله وظواهره، وهل هناك إله وراء عالم الظواهر المتغير، وفي صفات الله وعلاقته بمخلوقاته، وهل الوجود مادي صرف أم روحي خالص أم مزيج بينهما؟

● **نظرية المعرفة Epistemology:** وهي تعني إمكان العلم بالوجود أو العجز عن معرفته، فمثلاً: هل في وسع الإنسان أن يدرك الحقائق ويطمئن إلى صدق إدراكه وصحة معلوماته أم أن قدرته قاصرة عن معرفة الأشياء؟ وما حدود المعرفة البشرية؟ وهل هي احتمالية أم ترجيحية وهل تصل إلى درجة اليقين؟ وما منابع هذه المعرفة وأدواتها؟ ويلاحظ أن المؤرخين يطلقون على مبحثي الوجود والمعرفة اصطلاحاً ميتافيزيقاً أي: ما بعد الطبيعة، بينما كانت الفلسفة عند القدماء تنصب أصلاً على مباحث الوجود فقط.

(1) ينظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف بطرس كرم، ص 46.

(2) ينظر: مناهج البحث في العلوم السياسية، محمد محمود ربيع، ص 36 - 38.

والإيجابية والمشاركة والانفعال والتأثر والتأثير على أساس الولاء للوطن والإخلاص لأهدافه، لا مجرد التغني بأمجاد الماضي، والزهو بتراث الأسلاف، فالإنسان الفيلسوف لا يقف عند حدود آرائه النافذة، وأفكاره الثابتة، ومدرسته الفكرية، بل يتعدى ذلك إلى حب الحكمة، وحياة البساطة، وعزة النفس، والتناغم مع الحياة، والسيطرة على منطقته وأخلاقه، وتنسيق طاقته المتفاعلة المؤثرة<sup>(3)</sup>.

ثانياً: سبق المسلمين إلى فلسفة التاريخ: يُعدُّ المؤرخون المسلمون أول من نظر إلى التاريخ من حيث هو درس وعظة وعبرة، وكان مسكويه<sup>(4)</sup> السابق في هذا المضمار، حيث نهج منهج الاستدلال الفلسفي، مع ما كان له من نظرة أخلاقية عملية إلى حوادث التاريخ، نشداناً للفوائد التي تنطوي عليها أحداثه، فهو حكيم أخلاقي، صنف كتابه (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)، فكان رائداً في الكتابة العلمية للتاريخ، وقد شق الطريق إلى فلسفة التاريخ؛ ليكون أسوة حسنة لمن بعده من أمثال: رشيد الدين فضل الله<sup>(5)</sup> في كتابه: (جامع التواريخ)، وعبد الرحمن بن خلدون<sup>(6)</sup> في مقدمة تاريخه المشهور: (العبر وديوان

هو محاولة التوفيق بين العقل والدين، وإثبات أنَّ الحقائق الموحى بها من عند الله سبحانه ليست إلا تعبيراً عن العقل ممزجاً بالروح، والسعي لتحقيق متطلبات كل من الروح والجسد، ورغم أنَّ الوحي يعلو على العقل لكنه لا يتعارض معه بأي حال.

- مفهوم العصر الحديث: بدأ العصر الحديث حوالي القرن السابع عشر، وكانت الفلسفة تمر بحالة نشاطاً وربما ثورة تجلّت في كثرة المذاهب التي تصارعت فيما بينها، وتطلّع الفلاسفة إلى وضع فلسفة جديدة قوامها العقل الذي يبحث في المعرفة وطبيعتها للوقوف على حقيقة العلاقة التي تربط بين قوى الإدراك والأشياء المدركة<sup>(1)</sup>.

ولعل من الفروق الأساسية بين الفلسفتين القديمة والحديثة هو أنَّ القديمة اهتمت بالوجود ونظرت من خلاله إلى المعرفة، بينما اهتمت الفلسفة الحديثة بالمعرفة ونظرت من خلالها إلى الوجود.

### المطلب الثاني : قيمة الإنسان في الفلسفة

أولاً: فاعلية الإنسان في فلسفة التاريخ: يرى بعض المؤرخين أنَّ دراسة التاريخ ذات صعوبة، وهذه الصعوبة ناشئة من كونها مادة إنسانية، بمعنى أنَّ الإنسان فيها هو المحور الأساس بتفاعلاته ونوازعه، وإيجابياته وسلبياته، هذا فضلاً عن عوامل أخرى لها دورها في أحداث التاريخ، كالعوامل الطبيعية والاجتماعية والفكرية والقيم الدينية والخلقية<sup>(2)</sup>.

وهذا يدل على فاعلية الإنسان في التحرك والإحساس الاجتماعي، وتنمية روح الجماعة،

(1) ينظر: مناهج البحث في العلوم السياسية، محمد محمود ربيع، ص 29، 31، 41 - 43، 87 - 88.

(2) ينظر: تفسير مسار التاريخ، رأفت الشيخ، ص 17.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 19 - 21.

(4) هو: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي الملقب بمسكويه (ت: 421 هـ)، أديب مؤرخ فيلسوف أخلاقي، كان مجوسياً ثم أسلم، وعاش في ظل الدولة البويهية، ثم انتقل إلى بغداد، ومات في أصفهان سنة 421 هـ (ينظر: تاريخ بيهق، ابن منده 1 / 644، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي 2 / 493).

(5) رشيد الدين فضل الله بن أبي الخير بن عالي الهمداني (ت: 718 هـ)، يهودي الأصل، طبيب حكيم. (ينظر: مجمع الآداب في معجم الألقاب، ابن الفوطي 1 / 239).

(6) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن خلدون الحضرمي (ت: 808 هـ) الأشبيلي الأصل، التونسي المولد، الإمام ولي الدين أبو زيد قاضي القضاة، العلامة الحافظ المؤرخ، مؤسس علم الاجتماع

عينّة من النتائج متمثلة في: الوعي التاريخي، أبعاد الماضي، الحقيقة التاريخية، موضوعية التاريخ، التصور الواقعي للبيئة في كل جوانبها، التقدم التاريخي عن طريق التحليل والمقارنة واستجلاء المواقف<sup>(5)</sup>.

2. بينما يبين الفيلسوف الفرنسي (فولتير)<sup>(6)</sup> أنّ فلسفة التاريخ هي: (دراسة عملية ناقدة ترفض الخرافات، وتنقح التاريخ من الأساطير والمبالغات من أجل نشر الحرية والتنوير العقلي)<sup>(7)</sup>.

3. فلسفة التاريخ هي: استهداف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقتها وتسجيلها وتفسيرها، وإبراز الترابط بين هذه الأحداث، وتوضيح العلاقة السببية بينها؛ للوصول إلى تفسير التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة، وبيان كيفية حدوث هذا التطور، ولماذا حدث<sup>(8)</sup>. ونرى أنّ هذه التعريفات تتفق على أنّه لا بدّ من النظر والتحليل والاستنتاج بعد التحقق من صحة المعلومات التاريخية؛ للوصول إلى الفوائد والعبر والدروس المستفادة لبناء الحاضر والمستقبل وفقها، وتجنب الأخطاء في كل نواحي الحياة على أساسها، فهذا هو القدر المشترك في المراد من مفهوم فلسفة التاريخ.

(5) ينظر: الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، سالم حميس، ص 14.

(6) فولتير Fwltyr: فيلسوف فرنسي عاش في عصر التنوير (1694 - 1778م)، اشتهر بحرية الفكر وعداوة الديانات، وقام على مذهبه الكومن الاشتراكية فأفسدت الأخلاق، وهو يعترف بوجود الله ولكنه ينكر الوحي وتدخل الله في العالم، وأصدر عام 1745م تمثيلية (محمد والتعصب) انتقد فيها بجرأة سيدنا محمداً ﷺ وانتقص من شخصه كثيراً. (ينظر: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، أبو التراب العفاني 2/ 408، والعلمانية وموقف الإسلام منها، حمود الرحيلي، ص 337).

(7) تفسير مسار التاريخ، رأفت الشيخ، ص 22.

(8) ينظر: المصدر نفسه، ص 10.

المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ثم الكافيجي<sup>(1)</sup> في كتابه: (المختصر في علم التاريخ)، والسخاوي<sup>(2)</sup> في كتابه: (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ)<sup>(3)</sup>، وغيرهم ممن اقتفى آثارهم.

لكنّ ابن خلدون أول من استخدم مصطلح فلسفة التاريخ كما يظهر من تعريفه السابق؛ لذا قامت دراسات كثيرة حول فلسفته؛ لما تميز به من بلورة لأفكاره، وتقعيد لأصوله<sup>(4)</sup>.

## المطلب الثالث : فلسفة التاريخ

### أولاً: مفهوم فلسفة التاريخ:

تباينت وجهات النظر في مفهوم فلسفة التاريخ كمصطلح مركّب، وعلى النحو الآتي :

1. يرى البعض أنها: إدارة جدلية خصبة، وعلاقات معاضدة، ومراقبة متبادلة بين عناصر ثلاث: الحدث والحديث والفكرة، وينتج عنها

(ينظر: نيل الابتهاج بتطريز الدياج، أبو العباس أحمد بابا التنبكتي، ص 250 - 251).

(1) هو محمد بن سليمان بن سعد الحنفي (ت: 879هـ). (ينظر: الأعلام، الزركلي 6/ 150).

(2) هو محمّد بن عبد الرّحمن بن محمّد بن أبي بكر بن عثمان بن محمّد السخاوي شمس الدين (ت: 902هـ)، المحدث المؤرخ الناقد (ينظر: نظم العقيان في أعيان الأعيان، السيوطي، ص 152).

(3) ينظر: تجارب الأمم وتعاقب المهم، مسكويه، تحقيق: أبو القاسم إمامي 1/ 29 (من مقدّمة المحقق)، وينظر للتوسع: ابن مسكويه مذاهب أخلاقية، كامل محمد عويضة، ص 11.

(4) للاطلاع على حياة ابن خلدون ينظر: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات، محمد عبد الحي الكتاني الإدريسي، تحقيق: إحسان عباس 1/ 29.

## ثانياً : أهمية فلسفة التاريخ

لقد أدرك المؤرخون المسلمون أهمية التاريخ، وخصصوا له كثيراً من مؤلفاتهم، وأودعوها خلاصة تجاربهم، وفيما يأتي نتلمس أهم النقاط الدالة على أهمية فلسفة التاريخ:

(1) دَلَّ ابن خلدون على أهميتها بأسلوبه الرائع حيث قال: (إنَّ فنَّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال ... وتتنافس فيه الملوك والأقيال ... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال ... وتؤدي لنا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمرها الأرض حتى نادى بهم الارتحال ... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعدَّ في علومها وخليق<sup>(1)</sup>).

(2) عن طريق العلم بالتاريخ الموثق وفلسفته نستطيع معرفة حقائق الأحداث والوقائع، ومدى صدقها، ومن الأمثلة على ذلك ما حصل في كتاب أشاعه اليهود أنَّ النبي ﷺ أسقط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة معاوية وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، وبعد التحقق تبين أنَّ معاوية أسلم بعد الفتح، وسعد مات يوم بني قريظة قبل خيبر، كما نقف من خلال التاريخ على تراجم الرواة من حيث اللقاء من عدمه وحال الراوي، وهكذا تُضبط تواريخ الوقائع والأحداث، مما يساعد على معرفة الناسخ من المنسوخ في الأحكام بمعرفة المتقدم من المتأخر<sup>(2)</sup>.

(1) المقدمة، ابن خلدون، ص 3-4.

(2) من مقال: أهمية التاريخ، فالح العمرة، على الموقع:

www.islamweb.net

(3) لفلسفة التاريخ صلة وثيقة بالعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فمن ناحية العلوم الاجتماعية كان التاريخ عنصراً من عناصر تكوين الانتماء إلى الجماعة، والتغيّر الاجتماعي، والعمل المتبادل بين الأفراد والأسر والمجتمعات، ونقل الأفكار من مجتمع إلى آخر، ومن ناحية العلوم السياسية نجد فلسفة التاريخ تطوّر الدراسات السياسية والقانونية؛ لتوجيه الحكم وتحليل العلاقات الدولية والمعتقدات الأيديولوجية، أما من ناحية العلوم الاقتصادية فتأثيرها واضح على النشاط التجاري، وتوزيع الثروة، ومستوى الرخاء مما يحدّد علاقة الدول ببعضها، ويتحكم في مصيرها ومجرى الأحداث فيها<sup>(3)</sup>.

(4) إنَّ التاريخ هو الشاهد الوحيد على أحداث الماضي والحاضر وما يسفر عنه المستقبل، وفي ضوء ذلك تتحدّد الاستفادة بتجنب الأخطاء وإيجاد الحلول؛ حتى لا تكون المجتمعات لقمة سائغة في أفواه الأعداء، وها هو ابن خلدون يدرك أهمية التاريخ ويصرف جلّ وقته ومؤلفاته وتجاربه لهذا الأمر الذي عُرف بـ (فلسفة التاريخ)، كما رأينا في عباراته المعبرة في النقطة الأولى.

(5) لا ينكر أحد أنَّ التاريخ من أهم ميادين المعرفة عند العرب منذ ما قبل الإسلام، حيث كانوا يعتقدون بأهمية حفظ شجرات الأنساب وتدارسها، حتى أرسل الله نبيه محمداً ﷺ بدعوة الإسلام وقصّ عليهم آيات بينات تذكّر أخبار الأولين، ثم اتسعت دولة الإسلام بعد النبي ﷺ، فأدّى ذلك الاتساع إلى نتاج فكري هائل، تناول مختلف الأزمنة والأقاليم التي تناولتها كتب التاريخ، واستوعبت جوانب النشاط الإنساني،

(3) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر،



لا تمتُّ إلى الصواب بأي صلة!<sup>(4)</sup>.

3 - شحذ الهمم، وبعث الروح من جديد، والتنافس على الخير والبناء والإصلاح عن طريق الوقوف على سير القدوات الصالحة التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه<sup>(5)</sup>، وعلى رأس هذه القدوات سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الذي ضرب أروع الأمثلة مما لم يأت به سابق ولا لاحق، حتى عدّه (مايكل هارت) مؤلف كتاب (المائة الخالدون) في أولهم<sup>(6)</sup>، وتاريخنا مليء برجال الإسلام العظماء الذين تخرجوا في مدرسة النبوة.

4 - نطلّ من نافذة التاريخ على المعلومات المتعلقة بالأمة العربية في الإسلام وقبله من حيث السيرة والأخبار والنسب، وتحديد الإطار العام للأمة العربية ومكوناتها، وقد ركز على هذه الأساسيات الثلاثة أبرز المؤرخين كالمدائني الإخباري (ت: 225هـ)، وابن سعد (ت: 230هـ)، والنسابة مصعب الزبيري (ت: 236هـ)، وقد شهدت هذه الحقبة جمع وتبويب تاريخ الأمة العربية، واتصال نسبها وتشكيل القاعدة الفكرية للدراسات التاريخية على أساسها<sup>(7)</sup>.

5 - الوقوف على أحوال الشعوب والأمم من حيث القوة والضعف، والعلم والجهل، والنشاط والركود، واستلهاهم المستقبل في ضوء السنن الربانية الثابتة، وقد أدرك العرب فوائد التاريخ فخصّوه

فكان من الطبيعي أن تبلور العقلية العربية الجديدة في حصيلة موروثها المعرفي والحضاري بشكل خاص، والإنساني بشكل عام، فالإسلام - تاريخياً - دين عالمي، لا مجرد طقوس ومناسك<sup>(1)</sup>.

6 إن التاريخ لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يُتخذ ميداناً للدراسة والاختبار التي في ضوئها نستخلص القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها<sup>(2)</sup>.

### ثالثاً: فوائد فلسفة التاريخ

طالما أن التاريخ يستهدف الإنسان، ويسع المكان والزمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فهو إذن مكنون الفوائد ومخزون العوائد، ونذكر فيما يأتي أهم فوائد فلسفة التاريخ:

1 - معرفة الأمور على وجهها خصوصاً اشتغالها على قصص الأنبياء والرسول عليهم السلام، والتأسي بسير المصلحين السابقين، والدلالة على شرف المصطفى ﷺ وشرف أمته، وقصص التهذيب والتربية، ومصائر المكذبين، وعاقبة المتقين<sup>(3)</sup>، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ أَرْسَلْنَا مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

2 - معرفة الحقائق من الأباطيل التي دُست في تاريخنا الإسلامي، سواء أكانت في الخلافة الراشدة أو غيرها، ومن ذلك تصوير ما وقع في السقيفة من خلاف يحطّ من شأن أصحاب النبي ﷺ، أو الخلاف بين أبي بكر وفاطمة، والخصومة بين عمر وخالدهما جميعاً، وغير ذلك من أمور حوّرت بطريقة مشينة

(1) علم التاريخ عند العرب فكرته وفلسفته، نزار الحديثي، ص 157.

(2) ينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص 9.

(3) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، السخاوي، ص 16.

(4) ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 2/ 220، وأباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم علي شعوط، ص 101، 107، 110، 109.

(5) من مقال: فوائد التاريخ، فالح العمرة، على الموقع: www.islamweb.net

(6) ينظر: الخالدون مائة أعظمهم محمد، ترجمة: أنيس منصور، ص 13 - 19.

(7) علم التاريخ عند العرب فكرته وفلسفته، نزار الحديثي، ص 91، 146.

### المطلب الأول: الجانب السلوكي

علاقة الإنسان بالله الخالق تعالى لا تكون بمعزل عن علاقة الإنسان بالإنسان وبالحياة من حوله بكل تفاصيلها وأخلاقياتها، وقد أكد الإسلام على هذه السلوكيات في وحدة متناسقة في حركة التاريخ وفلسفة الحياة، وفيما يأتي أهم النقاط في ذلك:

• أولاً: السلوك الإنساني: لا شك أن الدين ينظم علاقة الإنسان مع الإله الواحد الحق سبحانه وتعالى، كما أنه ينظم حياة الإنسان مع الإنسان في علاقاته وتصرفاته وتفاعلاته السلوكية، فالإنسان مدني بالطبع، ومن ثم لا يستطيع أن يستقل بنفسه، ولا أن ينأى عن بني جنسه، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ فَسَمَاءَ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا﴾ [الزخرف: 32]، وقال الرسول ﷺ: ((الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا))<sup>(3)</sup>، وقال أبو العلاء المعري:

الناس بالناس من حضر وبادية

بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم<sup>(4)</sup>

وفي الفقه الإسلامي باب يسمى: باب الشراكة، وهو (نوع من أنواع التعاون على عمارة هذه الحياة الدنيا مما يعود على تقويم الأبدان وسد حاجياتها حيث لا يستغني أحد عن أحد، فهذا يستطيع أمراً وهذا لا يستطيع، وهذا يعرف شيئاً وهذا يعرف غيره، فاشترك الناس في عمارة هذه الحياة الدنيا شاءوا أم أبوا)<sup>(5)</sup>.

(3) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (2446).

(4) ديوان أبي العلاء المعري، قافية الميم، ص 1203، موقع أدب: www.adab.com.

(5) مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض 351 / 42.

بجانب كبير من اهتماماتهم؛ ليلهم إلى معرفة مصائر الغابرين، ولم تخل كتبهم من المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية في العصور الإسلامية<sup>(1)</sup>.  
6 - التعرّف على الاتجاهات السياسية، وانحدار الخطّ البياني في مشروعية الشورى كأساس للسلطة إلى زمن عثمان رضي الله عنه حيث بدأ الانحدار لتحويل الشورى إلى صراع حيّك ضد الخليفة عثمان، وكذلك بين علي ومعاوية بطريقة تأمرية لم يكن لها وجود زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وبسبب هذه التطورات نشأت اتجاهات فكرية متعددة<sup>(2)</sup>، فهذه فائدة جليّة تحيط المطلع على التاريخ بما ينور فكره وعقله للانتباه إلى مفترقات الطرق، وخطورة المنزلات.

وبهذا المبحث نكون قد وضعنا أيدينا - إلى حدّ ما - على معنى التاريخ والفلسفة مفهومها وموضوعها ونظرياتها وتطورها، ثم فلسفة التاريخ وما يتعلق بها، لندخل بعد ذلك إلى دور الدين والإنسان في فلسفة التاريخ وحركته، وبالله وحده التوفيق.

### المبحث الرابع

#### دور الدين وأثره في فلسفة التاريخ وحركته

أتحدث في هذا المبحث عن دور الدين مركزاً على الجانب السلوكي والتشريعي والكوني من حيث أهميتها في التفاعل مع حركة التاريخ المتألق في الحقبة الإسلامية المنضبطة بالهدي الرباني، وذلك في المطالب الآتية:

(1) ينظر: المسلمون وكتابة التاريخ، عبد العليم خضر، ص 62 - 63.

(2) علم التاريخ عند العرب فكرته وفلسفته، نزار الحديثي، ص 146 - 147.

سبباً لدخول الجنة، يقول النبي ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبُئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَتَزَعَّتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَعُفِّرَ لَهَا»<sup>(3)</sup>.

ومنذ أربعة عشر قرناً نلاحظ كيف أن القرآن الكريم قد حرّك الوعي الإنساني وفتح عقله على مكانه في الكون والحياة، وعرفه بالحقوق والواجبات، وبذلك تعمق الوعي الديني والاجتماعي وتبلورت النظرة الإنسانية، وتأثر الأصحاب بأخلاق النبي ﷺ القدوة الكاملة الذي «كان خلقه القرآن»<sup>(4)</sup>، فتحولوا إلى واقع عملي متفاعل مع الوحي الإلهي.

• ثانياً: السلوك الإيماني: إن التفاعل مع الإيمان يجعل الإنسان صلباً أمام معاناة الحياة ولأوائها، قوياً أمام ضغوطها وصعابها ومصائبها، وبازدياد الوعي الديني تتضاءل تلك العقبات، ويصمد الإنسان إزاء النكبات ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا \* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا \* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا \* إِلَّا الْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ \* وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ \* لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ \* وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ \* وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ \* إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: 19-28]، وتصور لنا هذه الآيات تلك الحركة المتفاعلة الحية مع المجتمع في مواجهة الصعاب، حركة مبنية على دوام الصلة بالله، والخوف من عذابه، والمحافظة على حقوق الفقراء بذلاً وعطاءً، بينما (تشير عدد من الدراسات المقارنة بين حضارات مختلفة إلى خلاصة مؤداها أن

وهكذا أراد الله تعالى للحياة أن تسير بحركة دائبة، فشرع الدين لعباده، بمعنى مجموعة الاعتقادات والأفكار والنظم والعلاقات التي ترفد مسيرة الحياة، وهي قابلة للتطور وفق المعايير الأخلاقية، ووجود الشعور بصلة الدنيا بالآخرة يولّد عند الإنسان صلة قوية بالله، وتتغذى الروح وتنطلق في أعمال البر مما ينعكس إيجاباً على تربية النفس البشرية، وربطها بمقاييس الأخلاق لتأخذ دورها في البناء ومكانها في حركة التاريخ.

فعلى مستوى الجانب السلوكي على الإنسان تطبيق منهج الله والوقوف عند حدود الحلال والحرام، ولا يكون ذلك إلا بالاستقامة على الدين، ونتيجة لذلك يُسعد الإنسان بذلك المنهج حين يطيع الله طوعاً وحباً لا كرهاً وجبراً، فطاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية تنتج سعادة أبدية، وهي معادلة سلوكية واقعية.

ويتعدى السلوك الإنساني حدود النفس بامتداد التواصل والرحمة بالشعور الدافئ بالآخرين وتخفيف معاناتهم، يقول الرسول ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»<sup>(1)</sup>، فهو شعور إنساني كريم يتجاوز حدود النفس والانصهار في سفينة المجتمع.

ومن ذلك: السلوك مع غير الإنسان، فقد يكون تعذيب الحيوان سبباً لدخول النار، يقول النبي ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تَدْعَهَا تُصِيبْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، وَلَمْ تَطْعَمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا حَتَّى مَاتَتْ»<sup>(2)</sup>، وقد يكون رحمة الحيوان

(1) رواه مسلم، الصحيح، برقم (2699).

(2) رواه أحمد، المسند، برقم (10584)، في مسند أبي هريرة

ﷺ، قال المحقق: شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين 16 / 344.

(3) رواه أحمد، المسند، برقم (10583)، في مسند أبي هريرة

ﷺ، قال المحقق: شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين 16 / 343.

(4) رواه أحمد، المسند، برقم (24601)، وهو قول عائشة رضي الله عنها، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: صحيح.

الحاضرة فإن أمم الغرب وإن بلغت الذروة في استيفاء الحاجات الاجتماعية وعن طريق المؤسسات الاجتماعية وعن طريق المؤسسات العامة، لكنها لم تبلغ ذروة السمو الإنساني الخالص لله عز وجل كما بلغته أمتنا في عصور قوتها ومجدها، أو عصور ضعفها وانحطاطها<sup>(4)</sup>.

ومن الناحية التاريخية نرى أن حركات الإصلاح البروتستانتية في القرن السادس عشر الميلادي قد تأثرت بالقيم الإسلامية عن طريق الحروب الصليبية، والاحتكاك الحضاري في الأندلس، الأمر الذي أثر في قيام النهضة الأوروبية، ومعنى ذلك أن محاولات الإصلاح في عالمنا اليوم لا تتحقق إلا بزيادة الوعي الديني، والتواصل بين الحضارات لبناء قيم الحضارة وتحقيق العدل والمحبة الإنسانية المتبادلة، بدلاً من التوحش والأنانية والأفكار التي تغرسها الحضارة الأوروبية لإيجاد حالة من الصراع مع (الله)، وعدم الإيمان إلا بالمعرفة الطبيعية (مزيقية)، وأما (الميتافيزيقيا)<sup>(5)</sup> أي ما وراء الطبيعة - عالم الغيب - فهي تنكره وتعدّه خرافات وأساطير<sup>(6)</sup>.

### المطلب الثاني: الجانب التشريعي

إن تعاليم الدين الحنيف أو الفقه الإسلامي نشأت أساساً من حركة المجتمع وتفاعله مع الحوادث والمسائل، والبحث عن حلول لمشكلات

(4) ينظر: من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص 193.

(5) الميتافيزيقيا: كلمة مشتقة من اللغة اليونانية - meta Physika، بمعنى: ما وراء الطبيعة، وفيزيقيا: علم الطبيعة، فمعنى ميتافيزيقيا: دراسة الوجود الذي يوجد وراء الطبيعة. (ينظر: مناهج البحث في العلوم السياسية، محمد محمود ربيع، ص 266).

(6) ينظر: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، أكرم العمري 1/ 55 - 56.

الاكتئاب أكثر شيوعاً في الثقافات الغربية<sup>(1)</sup>، وذلك لافتقارها إلى الإيمان بالله والوعي الديني، بل يصل الأمر بهم إلى الانتحار أو الإسراف بالمخدرات هروباً من الحياة ونسيان مشاكل الخواء الروحي، رغم ما هم فيه من النعيم المادي، ففي السويد مثلاً وهي دولة غنية جداً تكفل للفرد إعانات وسكن وغلاء معيشة وتأمين صحي وتعليم مجاني، وتدفع الدولة 80% للأمور الاجتماعية، وليس عند الفرد السويدي أية معاناة مادية، ومع ذلك توجد في السويد أعلى نسبة للانتحار<sup>(2)</sup>، وكذلك أمريكا ذات ناطحات السحاب ومراكب الفضاء والثراء، ومع ذلك توصف الحياة في نيويورك بأنها غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء، وأنها ثقيلة الوطأة على الإنسان<sup>(3)</sup>.

• ثالثاً: السلوك الحضاري: ليس أدل على رقي الأمة وجدارتها بالحياة واستحقاقها لقيادة العالم، من سمو النزعة الإنسانية في أفرادها، سموً يفيض بالخير والبر والرحمة على طبقات المجتمع كافة، بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان، وبهذا المقياس تخلد حضارات الأمم. وبآثارها في هذا السبيل يفاضل بين حضارتها ومدنيتها، وأمتنا بلغت في ذلك الذروة التي لم يصل إليها شعب من قبلها على الإطلاق، ولم تلحقها من بعدها أمة حتى الآن، أما في العصور الماضية فلم تعرف الأمم والحضارات ميادين للبر إلا في نطاق ضيق لا يتعدى المعابد والمدارس، وأما في العصور

(1) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، أكرم العمري 1/ 54.

(2) تدعى بعض الثقافات اليابانية أن الانتحار سبب للوصول إلى ملكوت السموات (ينظر: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، أكرم العمري 1/ 54).

(3) ينظر: الإيمان والحياة، القرضاوي، ص 84 - 86.



إن هذه المقاصد متفاوتة بما يتلاءم مع أفراد المجتمع، فيجتمعون على الضروريات ويتفاوتون في التحسينات، فكل يأخذ منها بنصيب، وهذا يدل على العناية بالنفس الإنسانية وإحاطتها من جميع نواحي الحياة ليتم بها حركة التاريخ وتعمرها الدنيا.

ومعنى الضروريات: المصالح التي لا غنى عنها للبشرية، فبدون الدين يتحول الناس إلى همج لا قيمة لهم، وبدون حفظ النفوس تكون عرضة للتلف والافتتال والمجاعات والأوبئة، وبدون حفظ العقول يختل سبيل الرشاد ويضيع التدبير وحسن التصرف، وبدون حفظ النسل يحل الانقراض وتلاشي البشرية ويعم التلاعب بالأعراض، وبدون حفظ المال ضياع قوام الحياة واستئساد السراق وقطاع الطرق<sup>(4)</sup>.

ومقاصد الشريعة هي: (المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها، سواء أكانت تلك المعاني حكماً جزئية، أم مصالح كلية، أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين)<sup>(5)</sup>، وقد يُعبّر عن مقاصد الشريعة بالمصالح أو الحكم أو البواعث أو الأهداف أو المعاني أو الغايات أو الأسرار أو المقصود من التشريع<sup>(6)</sup>، يقول الشاطبي: (المعلوم من الشريعة أنها شرعت لمصالح العباد، فالتكليف كله إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معاً)<sup>(7)</sup>.

حاصلة، والحاجة إلى تنظيم الحياة في مجتمع فتي، ومن هنا تحرك الناس فكان التاريخ، وتحرك التاريخ فكانت الحضارات، وفي النقاط الآتية إيضاح للجانبين الفقهي المقاصدي والعبادي.

### أولاً: الجانب الفقهي المقاصدي

إنّ تشريع الأحكام في الفقه الإسلامي عمومًا وثيق الصلة بما عرف بالمقاصد أو الضرورات الخمس، وهي: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال، والتي اتفقت جميع الشرائع السماوية عليها<sup>(1)</sup>.

فالشريعة الإسلامية جاءت شاملة لمصالح العباد والبلاد، حيث استوعبت هذه المقاصد إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع، وشرعت لهم أعمالاً تحقق هذه المآلات، وسعت لإسعادهم مما جعلها صالحة لكل زمان ومكان، (ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها)<sup>(2)</sup>.

ومعنى ذلك: (وجود ترابط دقيق بين المقاصد والأفعال، فالمقاصد هي المصالح، والمصالح ثمرة للأعمال الصالحة، وثمرّة الأعمال قد تكون في الدنيا وقد تكون في الآخرة؛ وذلك لأنّ الدين يسمو بالإنسان إلى آفاق عليا ومبادئ مثلى، ويرفعه فوق نوازع الحيوانية، ويوثق صلته بالخالق تعالى، ويشعره بأنس الحياة والأحياء من حوله، كما أنّه يسائر الطبيعة البشرية ويهذبها ويرقيها دون مصادمة ولا تكليف بما لا يطاق)<sup>(3)</sup>.

الاعظم الجامعة ببغداد)، ص 286.  
(4) ينظر: محاضرات في مقاصد الشريعة، د. أحمد الريسوني، ص 138.

(5) الاجتهاد المقاصدي، نور الدين مختار الخادمي، ص 43.

(6) ينظر: المدخل إلى مقاصد القرآن، عبد الكريم حامدي، ص 21.

(7) الموافقات، الشاطبي 1/ 318.

(1) ينظر: الموافقات، الشاطبي 2/ 17 وما بعدها.

(2) قواعد الأحكام في مصالح الأنعام، سلطان العلماء العز بن عبد السلام 2/ 189.

(3) التخطيط التربوي في المنظور القرآني دراسة فكرية: محمد صادق الداموك، (اطروحة دكتوراه في كلية الإمام

## ثانياً: الجانب العبادي

النظام العبادي في الإسلام منظومة تأتي في إطار إصلاح الحياة الاجتماعية فرداً وجماعة، فيولد بذلك استقرار الإنسان وصمود النفس في مواجهة أعباء الحياة، والإحساس بالأنس والطمأنينة والرحمة، فالصلاة معراج المؤمن اليومي وتعميق الصلة بالله الواحد الأحد، وتنشّق أجواء القرب مما يبعث في النفس أريجاً واستقراراً وسعادة، والزكاة تكافل اجتماعي عظيم وتقارب بين فئات المجتمع الغنية والفقيرة، ورفع لمعنويات المحتاجين إلى أفق الإنسانية والشعور بحياة هادئة كريمة، والصيام تربية للنفس على الإرادة والتغلب على النزوات، وتعميق الشعور بالتقوى والمراقبة، ورعاية أصحاب الحاجات وإشراكهم بفرحة العيد بعد العبادات، والحج مؤتمر سنوي ولقاء ثقافي، وتلاش لفوارق الجنس واللون واللغة، بتوجه واحد ولباس واحد وشعائر واحدة، ومشاعر متحدة، وفي خطبة الوداع قال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»<sup>(5)</sup>.

و(تتميز العبادات المفروضة ونوافلها في الإسلام من طهارة وصلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها باليسر والسماحة، وقلة التكاليف، وسهولة الممارسة، والبعد عن التشدد والغلو والتنطع، وكون المشقة فيها معتادة، فضلاً عن فوائدها الجمة، وآثارها التهذيبية والاجتماعية، والتعبير بها عن عبودية الإنسان لله الخالق)<sup>(6)</sup>.

ومن ثم كانت التشريعات في المفهوم الصحيح للفقه الإسلامي لمواكبة الحياة ومتابعة حركة تاريخ المجتمع، فهي ليست مجرد أحكام تشبه القيود والأغلال ليس للإنسان إزاءها أن يتحرك أو يتململ كما يصوره بعض المستشرقين الطاعنين في شرعة الإسلام<sup>(1)</sup>، أو كما يتوهم المستشرق (جولد تسيهر)<sup>(2)</sup> من أن الإسلام ليست به الصلاحية الفقهية كي يشرّع للأمم والأجناس، إنه كسيارة ملاءها صاحبها بجالون من البنزين يكفي للسير عشرين أو ثلاثين ميلاً ثم ينتهي الوقود وتقف الرحلة<sup>(3)</sup>.

إن سياسة الإسلام بتشريعاته ومقاصده حركة للتاريخ وإعمار للأرض، وليس مجرد أحكام يفعلها المكلف لا تتعدى زاوية ضيقة، بل هي تعني وضع الضوابط المنظمة لممارسة الحكم وسياسة الدنيا، وإقامة النظام القضائي، وحفظ الأمن الداخلي، وإقامة المصالح الاقتصادية والخدمات الاجتماعية، وتدابير السياسات والعلاقات الخارجية<sup>(4)</sup>.

(1) ينظر: الحياة الاجتماعية الإسلامية كما صورها بعض المستشرقين، عبد الوهاب أبو حديبة (بحث ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية 147/2).

(2) مستشرق مجري (1850 - 1921 م)، اشتهر وتعمق في دراسة تاريخ الإسلام وعلوم المسلمين، وتولى مناصب علمية عدة شهدت له بطول الباع وترجمت إلى لغات كثيرة، كما كتب عن تاريخ الأدب العربي والفلسفة، عُرف بعدائه للإسلام، من كتبه: العقيدة والشرعية في الإسلام، الملل والنحل، اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين. (ينظر: الأعلام للزركلي 1/284، والمستشرقون، نجيب عقيقي، 906 - 911، وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص 197 - 203).

(3) دفاع عن العقيدة والشرعية ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، ص 85 - 86.

(4) ينظر: مقاصد المقاصد، د. أحمد الريسوني، ص 109.

(5) رواه أحمد، المسند، برقم (23489)، قال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(6) وسطية الإسلام وسماحته، وهبة الزحيلي، ص 16.

وهذا بخلاف نظرة بعض الغربيين والمستغربين من أذناهم، (فهم ينفرون من المتدينين ومن التدين لأنه يخالف أهواءهم، ولذلك تجد عندهم مفاهيم معكوسة، فهم لا يميلون إلى الفضيلة بمعناها الشرعي، كالحجاب والستر والحياء، ويرون هذه قيوداً، فمن الطبيعي أن ينظروا إلى من يتميز بالحياء والفضيلة وكل معاني الستر من رجل أو امرأة نظرة دنيا<sup>(3)</sup>).

ولا تنحصر أهمية الدين وضرورته لحياة الإنسان الحاضرة، فهو ضرورة أيضاً لحياته المستقبلية؛ وذلك لأن العمل الذي يثاب عليه في الآخرة لا بد وأن يكون أساسه الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وإلا كان هباءً في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: 39]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23].

ونجد من أجل حماية الدين قد شرع الله الجهاد بالمال والنفس حماية لبيضة الدين، ومنعاً للمرتدين والمارقين، وإزالة لحواجز الإيمان بالله الواحد الأحد، ومنها قتال المرتدين، وهو عقوبة الذين آمنوا ثم كفروا لعدم تمكن الدين في نفوسهم، وقد قال النبي ﷺ: ((مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ))<sup>(4)</sup>، وفي هذا النص ردع للكفار من الاعتداء على الدين ومحاربتة، ورسالة إلى ضعيفي الإيمان بعدم الردة عنه، كما حصل في قتال المرتدين زمن أبي بكر رضي الله عنه، ومنها قتل المتلاعبين باسم الدين صيانة له من العبث، ومن

إن الحاجة إلى الدين فطرة في النفس، وهو ضرورة من ضرورات إشباع الجوعة الروحية في الإنسان، وهي كحاجة الجسد إلى الطعام والشراب، قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

والدين يسمو بالإنسان إلى آفاق عليا ومبادئ مثلى، ويرفعه فوق نوازع الحيوانية، ويوثق صلته بالخالق تعالى، ويشعره بأنس الحياة والأحياء من حوله، كما أنه يساير الطبيعة البشرية ويهذبها ويرقيها دون مصادمة ولا تكليف بما لا يطاق، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. كما أن الدين يحد من آثار طغيان العلم حين يُطلق من غير قيود، فيكون آلة لتدمير البشرية كما في الغرب الذين فصلوه عن الروح وأطلقوا له العنان، يقول المؤرخ البريطاني (آرنولد توينبي)<sup>(1)</sup> الذي كان يعتقد بأن الأديان قد ذهبت إلى غير رجعة: (كنت لا أرى داعياً إلى إعادة ملء الفراغ الذي ستخليه تلك الأديان، ولكنني الآن قد توصلت إلى الاعتقاد بأن الدين رفيق لا يمكن عزله عن الوعي وملكة الاختيار، وهما من الخصائص المميزة للروح الإنسانية.. وفي اعتقادي أن لكل كائن إنساني دينه الفردي، ولكل جامعة بشرية دينها الجماعي..)<sup>(2)</sup>.

(1) مؤرخ بريطاني (1864 - 1930 م)، أهتم بالدراسات الإسلامية والفلسفة، وجمع بين الثقافة الإسلامية والفكر العلمي المنهجي الأوربي، وأسس مدرسة للدراسات الشرقية، وتولى مناصب علمية عدة، من كتبه: مختصر دراسة التاريخ، الإسلام والغرب والمستقبل، موسوعة الدين والأخلاق. (ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص 9 - 11).

(2) نقل ذلك عنه: يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ص 222.

(3) الاتجاهات العقلانية المعاصرة أصولها ومنهجها، ناصر العقل (دروس صوتية مفرغة على موقع الشبكة الإسلامية)، الجزء 4.

http://www.islamweb.net.

(4) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (3017).

(علمُ الله وقدرته وكتابه ومشئته، وذلك خيرٌ محضٌ وكمال، والشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدّر، ويكون شرّاً بالنسبة إلى محل، وخيراً بالنسبة إلى محل آخر، كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار، فإنه شر بالنسبة إليهم، وخير لما فيه من مصلحة الزجر، وكذلك الآلام والأمراض فهي ضرور من وجه وخيرات من وجوه عديدة... وقدّر الرب خير وعدل وحكمة ومصلحة، فما يكون مرّاً تعقبه حلاوة عاجلاً أو آجلاً...) (4)، وما تقدم من كلام ابن القيم تجلية لحقيقة القدر وعمق الإيمان به لما يحمله من المعاني الجليلة في حركة التاريخ؛ لذا كان ركناً من أركان الإيمان لا يتم إيمان المرء إلا به، وضرورة فهمه بدقة تحقق راحة القلب في العدل الإلهي في حركة الحياة على العموم.

### ثانياً: كتابة الأقدار

ورد الحديث عن النبي ﷺ في كتابة الأقدار مسبقاً، وذلك حين خلق الإنسان وهو جنين في بطن أمه، وجاء فيه: ((ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤَدِّنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ)) (5)، وهنا وقع الإشكال عند البعض في معنى الكتابة فاعتبروا ذلك جبراً، ومن هؤلاء معبد الجهني (6) وغيلان

(4) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، ص 268 - 269.

(5) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (7454).

(6) معبد بن عبيد الله وقيل ابن خالد الجهني البصري. (ت: 81 - 90 هـ)، أوّل مَنْ تَكَلَّمَ بِالْقَدَرِ. وَتَقَهُ ابْنُ مَعِينٍ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: صَدُوقٌ فِي الْحَدِيثِ، وَكَانَ مِنْ أَعْيَانِ الْفُقَهَاءِ بِالْبَصْرَةِ. (ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق: بشار 2/ 1006).

هؤلاء: السحرة، فقد قال النبي ﷺ «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» (1)؛ ذلك لأنّ الدين مبني على العقيدة السليمة، وهو يحمي المسلم من الخرافة والوهم، ومن هذا الباب أيضاً حارب الإسلام التكهّن والعرافة فقال النبي ﷺ: ((مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ بَرِيَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَمَنْ أَتَاهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ لَهُ لَمْ يُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)) (2).

وهكذا تتعدّد طرق منع الجناية على الدين في صور وأنواع شتى؛ لأنّ الحفاظ عليه من أعظم المصالح وأصلح المقاصد؛ لدوره البارز في حركة التاريخ ومحاربة الجريمة ببناء النفوس الصالحة وحماية الأرواح الطاهرة؛ ولذا تبذل في سبيله الأنفس والأموال رغم ما لها من قيمة كبيرة في نظام الإسلام.

### المطلب الثالث: الجانب الكوني

إن لقضية الأقدار الكونية علاقة وثيقة بحركة التاريخ، وهي غاية في الأهمية، ويحصل فيها اللبس عند البعض، ونعرض ذلك في النقاط الآتية:

#### أولاً: حقيقة الأقدار

الإيمان بالقدر في المنظور الإسلامي ركن ركين لا ينفصل عن العقيدة الصحيحة، فأركان الإيمان ستة بيّنها الحبيب المصطفى ﷺ بقوله: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) (3)، ومعنى القدر

(1) رواه الترمذي، السنن، برقم (1460)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

(2) رواه الطبراني، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، برقم (6670).

(3) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (50)، ومسلم، الصحيح، برقم (1)، واللفظ لمسلم.



## ثالثاً: حكمة كتابة الأقدار

إنّ الأشياء والحوادث تقع قدرًا على وفق ما علمه الله تعالى مسبقًا في الأزل، بمعنى أنّ الله تعالى علم ما سيحصل لفلان من حين ولادته إلى وفاته فسجل ما سيقع من الإنسان باختياره على أساس ذلك العلم المسبق، ولو كان معنى الكتابة الإجبار لبطلت أربعة أشياء هي في الأصل حكمة ربانية عظيمة في سنن الحياة وقوانين الوجود، وهذه الأشياء هي:

1. العقل: وبه ميز الله الإنسان على غيره من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الذهر: 3]، وقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].
2. إرسال الرسل: إذ بعثهم الله وأنزل عليهم كتبًا وصحفًا ليقوموا بالبشارة والندارة، يهدون الناس إلى سواء السبيل، قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

3. الثواب والعقاب: فالمطيع يثاب، والعاصي يعاقب، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ \* وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]، والإجبار ينفي هذا القانون.

4. الجنة والنار: وهما دار الجزاء، كل حسب استحقاقه بمقتضى العدل الإلهي، ومن الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى \* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى \* وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ \* وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى \* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 37-41] (5).

ومعلوم ضرورة أنّ هذه الأمور الأربعة حكمة إلهية قام عليها قانون العدل في الكون والحياة (5) ينظر: الإنسان مُسيّر أو مُخيّر، الشعراوي، ص 9 - 10،

الدمشقي<sup>(1)</sup> والجعد بن درهم<sup>(2)</sup>، وقد أخطأوا بذلك خطأ فادحاً<sup>(3)</sup>.

والكتابة نوعان: كتابة كونية، وكتابة شرعية، والتفريق بينهما محل الإشكال، فالكتابة الكونية كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]، والكتابة الشرعية بمعنى ما طلب من العباد في مجال الأوامر والنواهي فعلاً أو تركاً، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: 216]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، فالأول كوني راجع إلى الله تعالى، ولا دخل للإنسان فيه، والثاني شرعي موجه إلى الإنسان<sup>(4)</sup>، وبهذا يتضح المقام فلا يعتذر الإنسان بالقدر المكتوب، بل عليه أن يتحرك في الحياة حسب الأوامر والنواهي ليحقق دوره وذاته في حركة التاريخ الذي عليه بناؤه.

(1) كان قبطياً، قدرياً، لم يتكلم أحد في القدر قبله ودعا إليه إلا معبد الجهني (ت: 105 هـ)، قال بنفي القدر وبالغ فيه وأسرف في أيام هشام بن عبد الملك الذي كان شديداً على القدرية، فأمر به فصلب على باب دمشق. (ينظر: المعارف، الدينوري، تحقيق: ثروت عكاشة، ص 484، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري 42/9).

(2) مبتدع زنديق، أوّل مَنْ قَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ مَرْوَانُ الْجُعْدِيُّ، وَهُوَ مَرْوَانُ الْحِمَارُ آخِرُ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ، أَصْلُ الْجَعْدِ مِنْ خَرَّاسَانَ وَسَكَنَ دِمَشْقَ، وَأَسْرَفَ فِي قَوْلِهِ وَتَمَادَى فَذَبَحَهُ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقُسْرِي فِي عِيدِ الْأَضْحَى سَنَةَ 124 هـ، وهذه القصة مشهورة. (ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير 9/350).

(3) ينظر: الفرق بين الفرق، عبد القاهر الأسفراييني، ص 14 - 15.

(4) ينظر: شفاء العليل، ابن القيم، ص 281.

وقد دلت الشريعة على أن الخير في الإنسان هو الأصل، وهو الفطرة الناصعة التي خلقه الله عليها، قال الله تعالى: ﴿فَطَرَتُ اللَّهَ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ﴾ [الروم: 30]، فجعل الله الفطرة كسنة الحياة التي لا تتبدل، وأكد النبي ﷺ ذلك فقال: ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يُنَصْرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَانِهِ))<sup>(3)</sup>، والمراد بالفطرة الإسلام، وهذا هو المعروف عند عامة السلف؛ لأنه الإسلام هو الأصل، وغيره من الديانات جاء من بواعث الضلالة، وأجمع علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو في الجنة، وأطفال المشركين كذلك على القول الراجح واختاره الإمام البخاري<sup>(4)</sup>.

واحتج القدرية<sup>(5)</sup> بهذا الحديث على أن الكفر والمعاصي ليس بقضاء الله وقدره، وليس كما قالوا؛ وذلك لأن اليهود وغيره إنما كان باختيار الإنسان ورضاه، وهذا بلا شك من القدر المسجل<sup>(6)</sup>.

وما من شك في أن الإنسان في حركته وتفاعله مع الحياة قد يضعف أحياناً أمام نزوة عابرة أو شهوة جامحة، أو إخفاق في مجال العمل، أو إحباط إزاء محاولة ما، أو تفسير ظاهرة يخطأ في تشخيصها؛ ذلك لأن الإنسان مخلوق ضعيف في أصل التكوين، قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، ففي رحلته الحياتية يتدرج من مرحلة الطفولة الصغرى إلى الصبوة اليافعة إلى الشبوة القوية، ثم

والإنسان، وعليها تقوم حركة التاريخ كله، وبطلانها يعني غياب العدل واختلال الموازين وعبث الحياة. وهكذا تتنوع جوانب الدين ودوره الأساس في فلسفة التاريخ، وأثره البالغ في حركة الحياة والأحياء ما بين جانب سلوكي يضبط حركة الإنسان، وجانب تشريعي يضبط قانون الحياة، وجانب كوني يفسر العلل الخفية وضرورة التعامل معها ضمن منطلقات الحكمة الدينية والكونية.

### المبحث الخامس

#### دور الإنسان في فلسفة التاريخ وحركته

##### المطلب الأول: طبيعة الإنسان

##### أولاً: النفس الإنسانية وحدودها

قال الجرجاني في تعريف النفس الإنسانية بأنها: (كَمَالٌ أَوَّلٌ لَجَسْمٍ طَبِيعِيٍّ، آتِيٌّ مِنْ جِهَةٍ مَا يَدْرُكُ الْأُمُورَ الْكَلِيَّاتِ، وَيَفْعَلُ الْأَفْعَالَ الْفَكْرِيَّةَ... فَإِذَا سَكَنَتِ النَّفْسُ تَحْتَ الْأَمْرِ وَزَايَلَهَا الْأَضْطِرَابُ بِسَبَبِ مَعَارِضَةِ الشَّهَوَاتِ سُمِّيَتْ مَطْمَئِنَّةً، وَإِذَا لَمْ يَتِمَّ سَكُونُهَا وَلَكِنَّهَا صَارَتْ مُوَافِقَةً لِلنَّفْسِ الشَّهَوَانِيَّةِ وَمَعْتَزِضَةً لَهَا سُمِّيَتْ لَوَامَةً؛ لِأَنَّهَا تَلُومُ صَاحِبَهَا عَنْ تَقْصِيرِهَا فِي عِبَادَةِ مَوْلَاهَا، وَإِنْ تَرَكْتَ الْإِعْتِرَاضَ وَأَذْنَعْتَ وَأَطَاعْتَ لِمَقْتَضَى الشَّهَوَاتِ وَدَوَاعِي الشَّيْطَانِ سُمِّيَتْ أَمَّارَةً)<sup>(1)</sup>، وهذه التسميات من حيث علاقة النفس بالصالح والفساد.

وأما من حيث ترتب الحقوق فالمقصود بها: النفس المعصومة، وهي ثلاثة أنفس: نفس معصومة بالإسلام، ونفس معصومة بالجزية، ونفس معصومة بالأمان<sup>(2)</sup>.

(1) التعريفات، الجرجاني، ص 244.

(2) ينظر: السراج الوهاج على متن المنهاج، النووي، ص 532.

(3) تقدم تخريجه في المبحث الأول.

(4) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر 248/3.

(5) القدرية: هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى. (التعريفات، الجرجاني، ص 174).

(6) ينظر: شفاء العليل، ابن القيم، ص 284، وفتح الباري، ابن حجر 250/3.

فيتلطف بها، ولا يحملها مالا تطيق لكي تبقى على سواء الطريق، فكلما بعدت عادت وأبت.

### ثالثاً: فردية الخطيئة

تأتي النظرة الواقعية إلى قضية وقوع الخطيئة من الإنسان، ويقرر الإسلام فردية الخطيئة، وفردية التوبة، فالنفس البشرية تنطوي على متناقضات من خير وشر، وانتباه وغفلة، وقوة وضعف، فليس هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده كما في النظرة الكنسية، وليس هناك تكفير لا هوقي يقوم بدور النيابة عن البشر، فالخطيئة مرهونة بكل بني آدم على انفراد، وطريق التوبة للجميع مفتوح<sup>(3)</sup>، فلا يوجد في الإسلام خطيئة جماعية ليأتي المسيح المخلص ابن الله - كما يزعمون - فداءً لأبناء آدم وحواء فيصلب تكفيراً جماعياً عنهم<sup>(4)</sup>، فالقرآن ينفي عقيدة الصلب بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]، وليس هناك من يتحمل الذنب عن الآخر، فالقرآن يقرر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]، وفي آيات أخرى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۖ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۚ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: 38-42]، قال ابن عطية: (أي لا تحمل حاملة حمل أخرى، وإنما يؤخذ كل واحد بذنوب نفسه)<sup>(5)</sup>، هذا مع أن المفهوم القرآني عن عيسى عليه السلام غاية في الوضوح، يقول الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۖ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75]، قال القرطبي: (أي

الكهولة الضعيفة، فالشيخوخة الفانية، ولن يستطيع الإنسان أن يفر من هذا القانون التنقلي الدائري: ضعف فقوة وضعف فموت<sup>(1)</sup>، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

### ثانياً: عدو الإنسان

إن الله سبحانه لما كلف الإنسان بدور الخلافة أول مرة أعلمه أن له عدواً لدوداً أخرج أباه من الجنة، فقال سبحانه: ﴿يَبْنِيْٓءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ ۖ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]؛ ليكون الإنسان على علم بصفة ذلك العدو الذي يربكه والذي صرح مقسماً: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: 82-83]، وأعلن عن أسلوبه قائلاً: ﴿لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: 39]، وصرح بتشعب طرقه فقال: ﴿ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17]، وإزاء هذه التأميرات قد يقع الإنسان في الذنب، وهنا يرحم الحق سبحانه الإنسان بالتوبة ويفتح له باب المغفرة حتى آخر لحظة من حياته فيقول: ﴿وَلِيَّ لَفْقَارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَىٰ﴾ [طه: 82]، ويقول الحبيب ﷺ: ((«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغْ»))<sup>(2)</sup> لكي يستفيق الإنسان بعد غفوة، ويتنبه بعد غفلة، ويعاود الطريق الصحيح بعد ابتعاد، فالله تعالى يعلم ضعف النفس البشرية

(1) ينظر: من هو سيد القدر في حياة الإنسان، البوطي، ص 19-20.

(2) رواه ابن ماجه، السنن، برقم (4253)، قال الألباني: حسن، وقال المعلق محمد فؤاد عبد الباقي: (مالم يغرغ) أي مالم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغ به المريض (المصدر نفسه 2/ 1420).

(3) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب 1/ 61.

(4) ينظر: الله جل جلاله، سعيد حوى، ص 178.

(5) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز 5/ 205.

جعل الله في الإنسان قوى ومواهب تمكنه من تحقيق هذه الخلافة، وهي منزلة عظيمة له، وتكريم إلهي كريم عن علم وإرادة ومشئئة مطلقة<sup>(2)</sup>، وفي مقدمة الطاقات البشرية العلم الموهوب للإنسان بأسبابه ومتعلقاته، فهو السبيل الأول لإدراك هذه الخلافة المنوطة به: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]؛ لأن الإنسان سيحتاج إلى القدرة على كشف رموز المسميات لحل ما يلقيه من صعوبات، وإزالة مشقة التعامل مع ظواهر الأشياء، الأمر الذي عجزت الملائكة عن إدراكه لأن لها شغلاً آخر غير ما يمارسه الإنسان في هذه الحياة<sup>(3)</sup>، فالإنسان سيد هذا الكون وخليفة الله في أرضه، فهو يتحرك لتحقيق هذه الخلافة، ومن ثم فهو بحاجة إلى تسخير الأشياء: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: 20]، قال القاسمي: (أي من النجوم والشمس والقمر، التي ينتفعون من ضيائها وما تؤثره في الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى، وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التي خلقها تعالى لنفع من سخرت له، وكذا ما أوجد في الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار، ليستعملها من سخرت له فيما فيه حياته وراحته وسعادته)<sup>(4)</sup>.

وهكذا نجد أن الله أكرم الإنسان (وألبسه ثوب الكرامة، وفصله على كثير ممن خلق بالعقل والعلم والبيان، والنطق والشكل، والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقامة المعتدلة، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الفاضلة من العبر والطاعة والانقياد، وشمله بالرعاية

مَا الْمَسِيحُ وَإِنْ ظَهَرَتِ الْآيَاتُ عَلَى يَدَيْهِ فَإِنَّمَا جَاءَ بِهَا كَمَا جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، فَإِنْ كَانَ إِلَهًا فَلْيَكُنْ كُلُّ رَسُولٍ إِلَهًا، فَهَذَا رَدُّ لِقَوْلِهِمْ وَاحْتِجَاجٍ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بَالِغٌ فِي الْحُجَّةِ فَقَالَ: ﴿وَأَمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ابْتِدَاءً وَخَبَرٌ ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أَيُّ أَنَّهُ مَوْلُودٌ مَرْبُوبٌ، وَمَنْ وَلَدَتْهُ النِّسَاءُ وَكَانَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ مَخْلُوقٌ مُحَدَّثٌ كَسَائِرِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَمْ يَدْفَعْ هَذَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَمَتَى يَصْلُحُ الْمَرْبُوبُ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا؟!<sup>(1)</sup>، وبهذا تنهوى فكرة التثليث، ويتلاشى ادعاء الصلب والخلص، وتسقط صكوك الغفران.

### المطلب الثاني: مهمة الإنسان

أنط الله تعالى الإنسان بمهمة عظيمة وأمانة ثقيلة حري أن يتبصرها، وهي تكليف كما هي تشريف، مسؤوليات متنوعة، فهو المستخلف لعمارة الأرض، ولا بد له من معرفة سنن الحياة وقوانين الكون؛ ليتسنى له التغيير والتعمير والتنوير، وهو ما نكشفه في النقاط الآتية:

#### أولاً: الاستخلاف

الإنسان ذلك المخلوق بأحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، ذلك الإنسان الكريم على الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، وتبدأ العلاقة التاريخية للإنسان مع الله الخالق سبحانه بقصة استخلافه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، هكذا اقتضت المشيئة العليا أن تسلم لهذا الكائن البشري زمام هذه الأرض، ليكشف ما فيها من كنوز وأسرار وطاقات وخامات، وقد

(2) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب 1 / 56.

(3) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب 1 / 57.

(4) تفسير القاسمي = محاسن التأويل 8 / 33.

(1) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن 6 / 250.



فالمؤرخون على اختلاف مناهجهم وفلسفاتهم لا ينكرون الحكمة وأثارها الهائلة<sup>(6)</sup>.

### ثانياً: استلهم السنن

إنَّ القرآن الكريم في حركته التاريخية يلفت نظر الإنسان إلى استلهم قوانين الكون وسنن الحياة في البناء والإعمار وتأسيس الحضارة وتقديم الأنفع للبشرية في كل شيء<sup>(7)</sup>، فرى في القرآن الكريم: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]، وقال: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 77]، بل يدعو إلى السير في الأرض للاعتبار والنظر فيقول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، ويلفت نظره لسنة التداول والغلبة والنصر بين الأمم والشعوب فيقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، وهكذا ينظر الإنسان ويعقل، ويتبصر ويخطط في ضوء تلك السنن حتى لا تنزل خطواته وتنزل مخططاته في طريق الخلافة الطويل، فحركة التاريخ حركة واقعية تحكمها نوااميس الكون والسنن الإلهية، ويقودها الإنسان بطاقته المهيأة وعقله المنور، وإذا تعثر أو تقهقر عاود المسيرة من جديد لمتابعة المسار الصحيح.

ومن السنن: الاختلاف بين الناس، فهو سنة من سنن الله في الخلق والتكوين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ \* إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118-119]، قال ابن عطية: (المعنى لجعلهم

(6) ينظر: حركة التاريخ بين النسبي والمطلق، النورسي، ص 27 - 28.

(7) ينظر: الإسلام والتنمية الاجتماعية، محسن عبد الحميد، ص 34.

والعناية وهو نطفة في داخل الرحم وفي جميع أطواره إلى أن صار خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين<sup>(1)</sup>.

وبلغ من كرامة الإنسان في الإسلام الحفاظ على عصمة النفس الإنسانية، يقول النبي ﷺ: ((لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ))<sup>(2)</sup>، بل شدد النبي ﷺ كذلك على تحريم قتل النفس المسلمة بأرقى بيان فقال: ((كَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ))<sup>(3)</sup>.

ومن ذلك أيضاً تحريم إخافة النفس البشرية بأي شيء، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: ((مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدْعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ))<sup>(4)</sup>، وفي هذا الحديث الشريف إشارة واضحة على تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه، وكل ذلك لكي يتمكن من أداء دوره الرسالي في حركته ومهمته.

وتتلخص وظيفة الإنسان في حركته التاريخية بأن يتذكر دائماً أنه عبد الله، وأن ما فيه من النعم والمدرجات والقدرات إنما هي هبة من الله، وإذن فعليه واجب العناية بما أودع الله فيه للقيام بواجب الخلافة في الأرض، محققاً نفع الإنسانية من حوله حسب قوانين الكون، متحرراً في حدود العلم والعقل<sup>(5)</sup>، لكي يبعث العطاء الحضاري للأمم،

(1) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، يوسف حامد العالم، ص 271.

(2) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (6878).

(3) رواه الترمذي، برقم (1395)، وقال الألباني: صحيح.

(4) رواه مسلم، الصحيح، برقم (2616).

(5) ينظر: من هو سيد القدر في حياة الإنسان، البوطي، ص 81 - 82.

والذين يرون الديالكتيك<sup>(4)</sup> هو دستور حركة الكون وسر تقلبات التاريخ ما لهم لا يطحنون هذه النواميس الضاربة بجذورها فما يحركها شيء، والقائمة على أصولها فما يلويها شيء<sup>(5)</sup>!

#### ثالثاً: مسؤولية التغيير

إن أول اعتبارات هذا الاستخلاف هي أن الإنسان سيد هذه الأرض، وثاني الاعتبار هي أن دور الإنسان هو التغيير والتبديل والإبداع والانتاج والتفنن والتقنين؛ لأنه محور التغيير في هذه الأرض<sup>(6)</sup>، وكل ما زُود به الإنسان من قدرات وطاقات إنما هي من أجل مهمته التغييرية وحركته التاريخية لتحقيق المسؤولية الملقاة على عاتقه، وعليه أن يدرك حجم هذه المسؤولية وحجم سيادته في الكون<sup>(7)</sup>، وهنا يقرر القرآن الكريم حقيقة التغيير فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، قال الرازي: (جميع المفسرين يدلُّ على أن المراد لا يُغَيَّرُ ما هم فيه من النعم بإنزال الإنقيام إلا بأن يكون منهم المعاصي

أمة واحدة مؤمنة - قاله قتادة - حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مثله، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون مختلفين في الأديان والآراء والملل، وهذا تأويل الجمهور... وقالت فرقة: لا يزالون مختلفين في السعادة والشقاوة، وهذا قريب المعنى من الأول، إذ هي ثمرة الأديان والاختلاف فيها<sup>(1)</sup>، وهذا يدل على أن الاختلاف سنة كونية أرادها الله سبحانه لحكمة عظيمة.

لكن المراد من الاختلاف هو: افتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال، ولأرباب الشرائع والأديان جميعاً اختلافات لا حدَّ لها ولا حصر، فالعقول متفاوتة، والمطالب كثيرة، والمنازعات غير منقطعة<sup>(2)</sup>، وتبقى حركة التاريخ وفلسفة الحياة جارية على رسلها في ضوء هداية السنن؛ لأنَّ (روح الديانات جميعاً وأساسها توحيد الله تعالى وعبادته والخضوع له على صور مختلفة، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التي تقوم بها، وتهذيب الأخلاق لتبتعد عن سيئ الأفعال والأقوال)<sup>(3)</sup>.

ويتبين مما سبق: أن سنة الاختلاف في تاريخ العالم تقع بين جميع البشر، وأنَّ ذلك مما أراد الله تعالى لحكمة بالغة، إذ اختلاف العقول يؤدي إلى التكامل والتفاضل والاختيار؛ ليكون عقل الإنسان داعياً له لاختيار طريقه في الحياة، وهو مجزئ على اختياره ومحاسب عليه، لكن عليه أن يتعايش مع بني جنسه بكل أريحية ورفقي لمسيرة الحياة، وأنَّ اختلاف العقول والتوجهات لا يفسد للود والتعايش قضية.

(4) أخذت كلمة (ديالكتيك) من الكلمة اليونانية (دياليجو)، ومعناها المحادثة والمجادلة، وقد أقام الشيوعيون الماركسيون بنيانهم الفكري والسلوكي الشامل لكل جوانب الحياة على عقيدة تزعم أن المادة هي كل الوجود، ولا شيء وراء المادة، ولا شيء غير المادة، وأن هذه تتحرك وتتطور وفق ما أطلقوا عليه (قانون الجدلية = الديالكتيك)، وزعموا أن هذا القانون هو المهيمن على حركة الوجود كله، وأن الحياة والفكر هما نتاج هذا الوجود المادي. (ينظر: كواشف زيوف، عبد الرحمن حسن جبنكة، ص 563، ومذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، ص 269).

(5) ينظر: من هو سيد القدر في حياة الإنسان، البوطي، ص 53.

(6) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب 1/ 60.

(7) ينظر: في نظريات التغيير، منير شفيق، ص 147.

(1) المحرر الوجيز، ابن عطية 3/ 215.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي 18/ 410 - 411.

(3) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الهرري 6/ 30.

المنافسة والبذل والتضحية<sup>(4)</sup>.

وفيما يأتي أهم النقاط إزاء النظرة الصحيحة في

حركة الإنسان بين القدر والواقع:

أولاً: في طبيعة الضعف البشري: من الواضح الجلي أن الإنسان يعتوره النقص وتقع منه الخطيئة، وذلك تعبير عن ضعفه المفطور عليه خلقة وتكويناً، وأن ما قدره الله من نوااميس كونية تشير إلى وجود أعداء للبشرية على امتداد الزمان والمكان، وهو أمر طبيعي كمثّل الجسد الذي تصيبه الأمراض فتكون سبباً في مناعته، والخطيئة ما هي إلا جرثومة يعمل الجسد لإيجاد المناعة ضدها عن طريق التنبه لها ومقاومتها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا سَهُمْ طَافَ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6]، وبعد التيقظ والتبصر يواصل الإنسان حركته ومسيرته في اتساق و يقين منطلقاً نحو البناء والإعمار لهذه الحياة.

ولعل ما حدث بين نبي الله موسى ونبي الله آدم عليهما السلام يجلي لنا القدر الواقع على الإنسان، وهو إيضاح لقضية الخطيئة والقدر، فقد قال النبي ﷺ: ((اُخْتَجَّ آدَمُ، وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَ ذُرِّيَّتَكَ مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَكَلَامِهِ ثُمَّ تَلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ! فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى))<sup>(5)</sup>، ومن هذا الحديث نفهم أن الإنسان عبدٌ لله خلقه ورقاه في درجات العلم والمعرفة، فما عليه إلا أن ينطلق في مهمته ورسالته التي خلق من أجلها ليحقق التفاعل التاريخي في حمل الأمانة،

وَالْفَسَادُ<sup>(1)</sup>، وهذه من سنن الله الاجتماعية في الحياة والكون والإنسان.

ولا يخفى ما لهذا القانون الإلهي من تكريم للإنسان وتحميل للمسؤولية في آن واحد، إذ جعل التغيير مسؤولية كبرى يصنعها الإنسان بنفسه، فهو يرتقي أو يهبط على حسب عمله وتفاعله مع سنة التغيير، وهو المسؤول الأول عن هذا التغيير<sup>(2)</sup>، وهي دعوة صريحة لبني الإنسان أن يفكروا وينبشوا، ويرتقوا بالبشرية إلى أفق أعلى وبناء رصين، وإلا فالرقي يفوتهم والهلاك يحوطهم.

ولا شك أن مساحة التغيير واسعة، فحركة التاريخ شاملة للحياة كلها، سواء ما يتعلق بالشعائر أو الشرائع، إذ الغاية من حركة الإنسان الدائمة هي جميع صور الحياة في تحقيق حقيقة العبادة على وجه الأرض: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فالشعائر التعبدية عبادة، والجهاد عبادة، والطب عبادة، والتصنيع عبادة، وإعمار الأرض عبادة، وكل عمل نافع في حركة الإنسان عبادة، وبذلك يكون التغيير شاملاً مستوعباً لكل مجالات البناء.

### المطلب الثالث:

#### حركة الإنسان بين القدر والواقع

لقد جمع الإسلام بين كلتين عظيمتين: القضاء والقدر، ومسؤولية الإنسان عن العمل، فالأولى تحقق له الطمأنينة وتزيل عنه عقدة الخوف كما قال النبي ﷺ: ((مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْكَ))<sup>(3)</sup>، والثانية تولد فيه روح

حديث طويل عن القدر.

(4) ينظر: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، العمري 60/1.

(5) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (7515).

(1) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب 20/19.

(2) ينظر: الإسلام والتنمية الاجتماعية، محسن عبد الحميد، ص 33.

(3) رواه أحمد، المسند، برقم (21611)، وهو جزء من

دون اكتراث بما هو مقدر خارج عن حدود طاقته تفكيره<sup>(1)</sup>.

ثانياً: في موقف الإنسان مع الغيب والشهادة: يتحرك الإنسان في الوجود ضمن مهمته الرسالية في عالم الشهادة، فهو عالمه المأمور بخلافته، العالم المحسوس المشاهد أمام الإنسان بكل حواسه وتفكيره وطاقاته ونموه وتطور مدركاته، وليس له أن يتحرك في عالم الغيب الذي يتجاوز حدود معلوماته وعقله، فإذا أوغل فيه الإنسان عجز عن التحمل، وجنى عليه التأويل والتمحل.

وحين نلقي نظرة فاحصة على قصة موسى عليه السلام<sup>(2)</sup> مع الخضر<sup>(3)</sup> يتكشف لنا جلياً عجز موسى عن الإدراك رغم أنه في مقام النبوة، ولكن الله أعلمه بما غاب عنه، وذلك عن طريق العبد الصالح الذي رافقه في رحلة جمعت ما بين عالمي الشهادة والغيب، فلم يدركها موسى إجراءً على عالم الحس ففسرها شراً محضاً، وعلمها الله تعالى الخضر إجراءً على عالم الغيب فكانت خيراً محضاً<sup>(4)</sup>، ومعنى ذلك أن الإنسان مدعو لأن يتحرك في عالم الشهادة مستخدماً طاقته في التحليل والاستقصاء والعمل البناء، وإلا سيقع في فجوة عميقة تؤدي به إلى انزلاق خطير، (وَهَذَا الْعِلْمُ الَّذِي أُوتِيَهُ الْخَضِرُ

(1) ينظر: من هو سيد القدر، البوطي، ص 78.

(2) القصة طويلة وردت في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ .... ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [82-60].

(3) اسمه خضرون بن قاييل بن آدم، وقيل غير ذلك، والخضر لقب له، وكنيته: أبو العباس، وكان من أشراف بني إسرائيل وأطولهم عمراً، والراجح أنه نبي وأنه مات، وسمي بالخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء، وفي أخباره تفاصيل كثيرة.

(ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير 1/ 380 فما بعدها، وينظر: محاسن التأويل، القاسمي 7/ 59 فما بعدها).

(4) ينظر: حركة التاريخ بين النسبي والمطلق، النورسي، ص 17.

هُوَ عِلْمٌ سِيَاسَةٌ خَاصَّةٌ غَيْرَ عَامَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِمُعَيَّنِينَ لِحُلْبِ مَصْلَحَةٍ أَوْ دَفْعِ مَفْسَدَةٍ، بِحَسَبِ مَا تَهَيَّئُهُ الْحَوَادِثُ وَالْأَكْوَانُ، لَا بِحَسَبِ مَا يُنَاسِبُ الْمَصْلَحَةَ الْعَامَّةَ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يَسِّرُهُ لِنَفْعِ مُعَيَّنٍ مِنْ عِنْدِهِ<sup>(5)</sup>. وما ترشد إليه الآيات في هذه القصة أن:

(الأحداث الثلاثة التي فعلها الخضر كانت من قبيل اختيار أهون الشرين وأخف الضررين، وتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 82]، فهي وإن كانت مستنكرة في الظاهر، وحق لموسى عليه السلام إنكارها والاعتراض عليها، فهي خير في الحقيقة والواقع، وذلك لا يتسنى لأحد ادعاؤه بغير وحي صريح، وأحكام العالم والنبي في غير حال الوحي تنبني على ظواهر الأمور، وفي حال الوحي تنبني على الأسباب الحقيقية الواقعية)<sup>(6)</sup>.

ثالثاً: في مصير الإنسان: يبين لنا النبي ﷺ بياناً شافياً حين يتحدث عن مصير الإنسان المحتوم في جنة أو نار فيقول: «(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَتَكَلَّمُ عَلَيَّ كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)، ثُمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿۝۷۸﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿۝۷۹﴾﴾...﴾ [الآيات [الليل: 5-10]<sup>(7)</sup>، قال الطيبي في شرح الحديث، قوله: (أفلا تتكل) أفلا نعتمد على ما كتب لنا في الأزل، ونترك العمل؟ يعني: إذا سبق القضاء لكل واحد منا بالجنة أو النار فأى فائدة

(5) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور 15/ 371.

(6) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي 16/ 12.

(7) رواه البخاري، الجامع الصحيح، برقم (4949).



عامة مطلقة، وحين تأتي آيات أخرى مثل: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 264]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3]، وقوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: 27] يتبين في ضوء هذه الآيات بمجموعها أن الله تعالى يهدي من يشاء فيدخله في الإسلام بعنايته وهو أعلم بالقابلين للهداية؛ لاطلاعه على استعدادهم لذلك، وكونهم غير مطبوع على قلوبهم<sup>(3)</sup>، فإن الهداية معناها تذليل العقبات وتيسير الطريق القويم لمن آمن واختار سبيل الخير وأقبل عليه، وأما من كفر وكذب ونأى بجانبه واختار طريق الشر فإن الله لا يعينه إلا على ما قصده من طريق معوج<sup>(4)</sup>، وبهذا يزول الإشكال.

ويوضح الزحيلي أن الإنسان مباشر للفعل بإرادته وحرية، والله يهيئ له الأسباب، ويمنحه القوة والعون على فعله، وله الثواب في الطاعة، وعليه العقاب في المعصية، وبهذا ندرك سر العمل وجدواه في الدنيا دار الامتحان حتى النهاية المحتومة، وفي ذلك خير للفرد والجماعة، وكل ذلك مرتبط بحكمة إلهية عميقة ودقيقة، وإلا كان الوجود في الدنيا نقمة أو عبثاً، والله تعالى منزّه عن ذلك، كما أن للوجود الإنساني هدف في هذه الحياة<sup>(5)</sup>، لقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

وفيما تقدم في هذا المبحث نعلم دور الإنسان الفاعل في حركة التاريخ وفلسفته في ضوء فهم طبيعة الإنسان، وطبيعة مهمته الرسالية العظيمة، وطبيعة حركته بين القدر المحتوم أزلاً، وبين الواقع الذي يتعامل معه في الحياة.

في السعي؛ فإنه لا يرد قضاء الله وقدره؟ وأجاب ﴿بقوله: (اعملوا) وهو من الأسلوب الحكيم، منعهم ﴿عن الاتكال وترك العمل، وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من امتثال أمر مولاه، وهو عبوديته عاجلاً، وتفويض الأمر إليه آجلاً، يعني: أتم عبيد، ولا بد لكم من العبودية، فعليكم بما أمرتم به، وإياكم والتصرف في الأمور الإلهية﴾<sup>(1)</sup>.

ويبين الزحيلي أن تقرير حرية الإنسان في اختياره لأفعاله منوطة بمظلة من القيود والنواميس الكونية، فهو لا يستطيع اختراقها كالحياة والموت، والقوة والضعف، والعز والذل، فكلٌ ميسّر لما خلق له في نطاق المشيئة والإرادة الإلهية، فالإنسان ليس مجبوراً ظاهراً وباطناً، ولا خالقاً لأفعاله، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: 96]، وعلى هذا فالإنسان فاعل مختار ضمن ظروف محيطية به، فهو وسط في اختياره ولكن في حدود النظام الكوني العام، ومثاله كمن يعيش في حديقة غناء واسعة يتمتع بكل ما فيها، ويتجنب ما قد يكون فيها من مخاطر ومضار، ولكنه لا يتجاوز سور هذه الحديقة<sup>(2)</sup>.

وبهذا البيان تنتظم الأدلة ليواصل الإنسان مهمته التاريخية، فهو المسؤول عن عمله وسعيه في هذه الحياة.

رابعاً: في قضية المشيئة: يقع البعض في لبس من هذه المسألة متشككاً عما ورد في ذلك من آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: 93]، والجواب عن ذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فهذه الآية وأمثالها في معناها

(3) ينظر: محاسن التأويل، القاسمي 7 / 528.

(4) ينظر: الإنسان مُسَيَّرٌ أو مُخَيَّرٌ، الشعراوي، ص 17 - 18.

(5) ينظر: وسطية الإسلام وسماحته، وهبة الزحيلي، ص 15.

(1) شرح مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن، الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي 2 / 538.

(2) ينظر: وسطية الإسلام وسماحته، وهبة الزحيلي، ص 14.

### الخاتمة

في خاتمة المطاف أسطر بعض النتائج التي أفرزها هذا البحث، وذلك فيما يأتي:

- إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكتب التراجم مليئة بالآثار والقيم الدينية والإنسانية وتأثيرها على الحياة الواقعية في ضوء التاريخ الإسلامي، وهي تمثل تراثاً ضخماً ثراً يجعل من التاريخ مسرحاً صالحاً للحياة، ليصنع من الحياة صرحاً متيناً للتاريخ، فيتعانق التاريخ والحياة ويتعمق دور الدين والإنسان في حركة التاريخ وفلسفته المعاصرة.

- رسم الإسلام منهجاً كاملاً في التعامل مع التاريخ البشري بدءاً من توجيه الإنسان صوب الأهداف العليا واستخلاص القوانين الكونية التي تحكم الظواهر الاجتماعية، وتوجيه الفكر الإنساني نحو الكمال والشمول دون إسراف في خيال فلسفي ولا تعطيل لحركة الحياة.

- إن سياسة الإسلام بشريعاته ومقاصده حركة للتاريخ وإعمار للأرض، وليست مجرد أحكام يفعلها المكلف لا تتعدى زاوية ضيقة، بل هي تعني وضع الضوابط المنظمة لممارسة الحكم وسياسة الدنيا، وإقامة النظام القضائي، وحفظ الأمن الداخلي، وإقامة المصالح الاقتصادية والخدمات الاجتماعية، وتدابير السياسات والعلاقات الخارجية.

- من ناحية التواصل الحضاري بين الإسلام والغرب تبين أن حركات الإصلاح البروتستانتية في القرن السادس عشر الميلادي قد تأثرت بالقيم الإسلامية عن طريق الحروب الصليبية، والاحتكاك الحضاري في الأندلس، الأمر الذي أثار في قيام النهضة الأوروبية، ومعنى ذلك أن

محاولات الإصلاح في عالمنا اليوم لا تتحقق إلا بزيادة الوعي الديني، والتواصل بين الحضارات لبناء قيم الحضارة، وتحقيق العدل والمحبة الإنسانية المتبادلة.

- إن الإنسان بعقله الواعي ومدرجاته الممنوحة له هو سيد هذا الكون بأسخلاف الله له في هذه الأرض للقيام بحركة التاريخ وإرساء قيم الفضيلة وإقامة العدل وأداء دوره الرسالي.

- إن للعقل مجال عمله المحدود في عالم الشهادة، ويجب إزاء ذلك من فهم حقيقة القدر وعدم الإسراف وراء عالم الغيب الذي لا نعلم من كنهه إلا بما جاءت به الأخبار عن طريق الوحي، والوحي بنوعيه - الكوني والشرعي - هو الهادي إلى استلهم السنن ومعرفة القوانين الكونية بالقدر الكافي لمهمة الإنسان وحركة التاريخ.

- للبعد الديني في فلسفة التاريخ دور مهم في مساحة الحياة وانضباط الإنسان، وهو جزء أساس في سبر أغوار المجتمع، والدين هو الضابط الحقيقي المتوافق مع العقل البشري الصحيح للتفاعل المنتج في مسيرة الحياة.

- للتاريخ ناحية كلية تشمل مسرح الحياة والأحياء في تناسق وتناغم يحقق أمن البشرية، ويبعد عنها شبح الخوف والرعب الذي تعيشه أغلب المجتمعات المعاصرة، كما أن للتاريخ ناحية عليّة تنظر إلى أسباب قيام الحضارات وعوامل سقوطها، وهي نتاج الفلسفة التاريخية التي أبرزها علماء الإسلام وفلاسفته عبر القرون.

هذه أبرز نتائج البحث، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

- أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: جمع وترتيب: أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني، دار ماجد عسيري، السعودية، جدة، ط1، 1424هـ - 2004م.
- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.
- الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي (ت: 902هـ)، حققه وعلق عليه بالانجليزية: المستشرق فرانز روزنثال، ترجم التعليقات والمقدمة وأشرف على النص: د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.
- الإنسان مُسَيَّر أو مُخَيَّر، محمد متولي الشعراوي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1989م.
- أهمية التاريخ: مقال لفالح العمرة، على الموقع: [www.islamweb.net](http://www.islamweb.net)
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، أبو بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط6، 2009م.
- الإيمان بالله، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2009م.
- الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1975م.
- الإيمان، أركانه، حقيقته، نواقضه، محمد نعيم ياسين، دار السلام، دمشق، طبعة مصححة ومنقحة، 2007م.
- البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: 774هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م.
- بناء المجتمع الإسلامي: نبيل السملوطي، دار الشروق، بيروت، ط3، 1418هـ - 1998م.
- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، القاهرة، دت.

## المصادر:

- القرين الكريم .
- أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ: إبراهيم علي شعوط، مطبعة دار التأليف، مصر، ط4، 1396هـ - 1976م.
- الإبانة في اللغة العربية: سلمة بن مسلم العوتبي الصُّحاري، تحقيق: د. عبد الكريم خليفة، د. نصرت عبد الرحمن، د. صلاح جرار، د. محمد حسن عواد، د. جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، مسقط، ط1، 1420هـ - 1999م.
- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (ت: 1307هـ)، دار ابن حزم، ط1، 1423هـ - 2002م.
- ابن سعد منهجه وموارده في كتابه الطبقات الكبرى: د. محمد صالح جواد السامرائي، دار عماد الدين، عمان، ط1، 1430هـ - 2010م.
- ابن مسكويه مذاهب أخلاقية: الشيخ كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ - 1993م.
- الاتجاهات العقلانية المعاصرة أصولها ومناهجها: ناصر العقل (دروس صوتية مفرغة على موقع الشبكة الإسلامية).
- الاجتهاد المقاصدي، نور الدين مختار الخادمي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2010م.
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: 354هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت: 739هـ)، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م.
- الأديان والمذاهب: جامعة المدينة العالمية، مرحلة الماجستير، مناهج جامعة المدينة العالمية، كود المادة: GUSU 5053.
- الإسلام والتنمية الاجتماعية، محسن عبد الحميد، دار الأنبار، بغداد، ط1، 1989م.

- تاريخ الإسلام وَوَفَيَاتِ المشاهير وَالْأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت: 748هـ)، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 2003م.
- تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف بطرس كرم (ت: 1959م)، مكتبة الدراسات الفلسفية، ط 5، دار المعارف بمصر، القاهرة، دت.
- تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت: 463هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1422هـ - 2002م.
- تاريخ بيهق: أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن منده البيهقي (ت: 565هـ)، دار اقرأ، دمشق، ط 1، 1425هـ.
- التاريخ والمؤرخون إلى نهاية العصر العباسي: عبد الله عبد الرحمن، دار المدني، القاهرة، ط 1، 1994م.
- تجارب الأمم وتعاقب الهمم: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت: 421هـ)، تح: أبو القاسم إمامي، الناشر: سروش، طهران، ط 2، 2000م.
- التخطيط التربوي في المنظور القرآني دراسة فكرية: محمد صادق الداموك، (أطروحة دكتوراه في كلية الإمام الاعظم الجامعة ببغداد، 2012م).
- التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت: 816هـ)، تحقيق وضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1403هـ - 1983م.
- تفسير ابن عاشور = التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ.
- تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي المحاربي (ت: 542هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ.
- تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: 774هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط 1، 1419هـ.
- التفسير الإسلامي للتاريخ: د. عماد الدين خليل، طبعة بغداد، 1978م.
- التفسير الإسلامي للمنهج التاريخي: خير الدين فرج، الدار التونسية، تونس، ط 1، 1989م.
- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ.
- تفسير القاسمي = محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: 1332هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1418هـ.
- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384هـ - 1964م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 2، 1418هـ.
- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: محمد الأمين بن عبد الله العلوي الشافعي الهري، إشراف ومراجعة: د. هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، ط 1، 1421هـ - 2001م.
- تفسير مسار التاريخ (نظريات في فلسفة التاريخ): رأفت الشيخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1420هـ - 2000م.
- تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (ت: 370هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2001م.
- التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن



- بيروت، ط1، 2012 م.
- ديوان أبي العلاء المعري: قافية الميم، موقع أدب: [www.adab.com](http://www.adab.com).
  - الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت: 328 هـ)، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1412 هـ - 1992 م.
  - السراج الوهاج على متن المنهاج: محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي الشافعي (ت: 676 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط6، 2009 م.
  - سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (ت: 273 هـ)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دت.
  - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: 279 هـ)، تح وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1395 هـ - 1975 م.
  - سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت: 748 هـ)، دار الحديث، القاهرة، 1427 هـ - 2006 م.
  - السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية: د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط6، 1415 هـ - 1994 م.
  - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (ت: 418 هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، السعودية، ط8، 1423 هـ - 2003 م.
  - شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن): شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: 743 هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة - الرياض، ط1، 1417 هـ - 1997 م.
  - زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: 1031 هـ)، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1410 هـ - 1990 م.
  - الجاسوس على القاموس: أحمد فارس بن يوسف بن منصور أفندي الشدياق، صاحب الجوائب (ت: 1304 هـ)، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، تركيا، 1299 هـ.
  - الجامع الصحيح للسنن والمسانيد: صهيب عبد الجبار (منشور على المكتبة الشاملة بدون بيانات).
  - جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: 321 هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987 م.
  - حركة التاريخ بين النسبي والمطلق: بديع الزمان سعيد النورسي، مطبعة الزهراء، الموصل، 1987 م.
  - الحوار مع أصحاب الأديان مشروعيته وشروطه وأدابه: أحمد بن سيف الدين تركستاني، (الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات).
  - الحياة الاجتماعية الإسلامية كما صورها بعض المستشرقين: عبد الوهاب أبو حديبة (بحث ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1985 م.
  - الخالدون مائة أعظمهم محمد: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، انتاج: جدران المعرفة للنشر الإلكتروني.
  - الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ: سالم حميس، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1998 م.
  - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين: محمد الغزالي، دار السعادة، مصر، ط2، 1963 م.
  - ديكارت مبادئ الفلسفة: د. عثمان أمين، دار الثقافة، عمان، دت.
  - الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان: د. محمد عبد الله دراز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012 م.
  - الدين في حدود مجرد العقل: أمانويل كنت، نقله إلى العربية: فتحي المسكيني، جداول للنشر والتوزيع،

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: 850هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ.
- غريب الحديث: القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد (ت: 224هـ)، تحقيق د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، 1396هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت: 852هـ)، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، تخريج وتصحيح: محب الدين الخطيب، تعليق: العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.
- الفرق بين الفرق: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى التميمي الأسفراييني (ت: 429هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.
- فهرس الفهارس والأثبتات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الإدريسي (ت: 1382هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1982م.
- فوائد التاريخ: مقال لفالح العمرة، على الموقع: [www.islamweb.net](http://www.islamweb.net)
- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم الشاربي (ت: 1385هـ)، دار الشروق، بيروت، ط 9، 1980م.
- في نظريات التغيير: منير شفيق، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1994م.
- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت: 817هـ)، دار الفكر، بيروت، 1983م.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنعام: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: 660هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، طبعة جديدة مضمونة منقحة، 1414هـ - 1991م.
- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي: د. أكرم ضياء العمري، دار الشرق، ط 1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، سلسلة كتاب الأمة،
- شرح العقيدة الطحاوية: صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحى الدمشقي (ت: 792هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 10، 1417هـ - 1997م.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ط 1، 1323هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: 393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1407هـ - 1987م.
- صحيح البخاري = الجامع الصحيح المسند من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة الجعفي البخاري (ت: 256هـ)، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، إشراف: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، دط، دت.
- صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري الإمام الحافظ (ت: 261هـ)، تح وتعليق وفهرسة: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، راجعه: الشيخ خليل الميس، دار القلم، بيروت، ط 1، 1407هـ - 1987م.
- الطبقات الكبير: محمد بن منيع بن سعد الزهري البصري (ت: 230هـ)، تحقيق: د. علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1421هـ - 2001م.
- علم التاريخ عند العرب فكرته وفلسفته: نزار عبد اللطيف الحديثي، دار المسيرة، عمان، 2013م.
- العلم والسياسة بوصفهما حرفة: ماكس فيبر، ترجمة: جورج كتورة، دار كتاب، المنظمة العربية للترجمة، قدم له: الطاهر لبيب، 1919م.
- العلمانية وموقف الإسلام منها: حمود بن أحمد الرحيلي (منشور على المكتبة الشاملة بدون بيانات).
- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، بيروت، دط، دت.

- الإسلامي، إيران، ط 1، 1416 هـ.
- محاضرات في الأديان المقارنة (مذكرة لطلبة الدراسات العليا في الجامعة العراقية - بغداد): سعدون الساموك، 1995 م.
  - محاضرات في مقاصد الشريعة: د. أحمد الريسوني، دار النداء، تركيا - اسطنبول، ط 1، 2014 م.
  - مدخل إلى الفلسفة: إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1982 م.
  - المدخل إلى مقاصد القرآن: عبد الكريم حامدي، مكتبة الرشد (ناشرون)، الرياض، ط 1، 1428 هـ - 2007 م.
  - مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط 3، 1403 هـ - 1983 م.
  - المستشرقون: نجيب عقيقي، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط 3، 1964 م.
  - المسلمون وكتابة التاريخ دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ: د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1401 هـ - 1981 م.
  - مسند الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: 241 هـ)، تح: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421 هـ - 2001 م.
  - مصطلح التاريخ (بحث في نقد الأصول وتحرير الحقائق التاريخية وإيضاحها وعرضها فيما يقابل ذلك في علم الحديث): د. أسد رستم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط 3، دت.
  - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي: مالك بن الحجاج عمر بن الخضر بن نبي (ت: 1393 هـ)، إشراف وتقديم: المحامي عمر مسقاوي، دار الفكر المعاصر، بيروت - دار الفكر، دمشق، ط 1، 2002 م.
  - المعارف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276 هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2، 1992 م.
  - معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي 1994 م.
  - الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: 630 هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1417 هـ - 1997 م.
  - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني المشهور بحاجي خليفة (ت: 1067 هـ)، مكتبة المثنى، بغداد، دط، 1941 م.
  - كلمات مضيئة في الدعوة إلى الله: محمد علي محمد إمام، تقديم: الشيخ علي سعد أبو الخير، مطبعة السلام، مصر، ط 1، 2005 م.
  - الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الحنفي (ت: 1094 هـ)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، دت.
  - كواشف زیوف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني الدمشقي (ت: 1425 هـ)، دار القلم، دمشق، ط 2، 1412 هـ - 1991 م.
  - الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت: 1061 هـ)، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1418 هـ - 1997 م.
  - لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري الإفريقي المصري (ت: 711 هـ)، دار صادر، بيروت، ط 3، 1414 هـ.
  - الله جل جلاله: سعيد حوى، دار الكتب، بيروت، ط 3، 1972 م.
  - ما هي الفلسفة: د. حسين علي، التنوير للطباعة والنشر، مكتبة مؤمن قريش، بيروت، 2011 م.
  - مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية - تصدرها: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.
  - مجمع الآداب في معجم الألقاب: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي الشيباني (ت: 723 هـ)، تحقيق: محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد

- مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1420هـ - 1999م.
- المقدمة: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت: 808هـ)، دار الجيل، بيروت، ب.ت.
- من روائع حضارتنا، مصطفى بن حسني السباعي (ت: 1384هـ)، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1420هـ - 1999م.
- من هو سيد القدر في حياة الإنسان: محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، ط1، 1975م.
- مناهج البحث في العلوم السياسية: د. محمد محمود ربيع، مكتبة الفلاح، الكويت، ط2، 1407هـ - 1987م.
- منهج كتابة التاريخ الإسلامي: محمد صامل السلمي، دار الرسالة، مكة المكرمة، ط2، 1418هـ - 1998م.
- المنهجية التاريخية في العصر العباسي: رشاد حسن، بيروت، ط1، 1991م.
- الموافقات في أصول الشريعة: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي الشاطبي (ت: 790هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، القاهرة، ط1، 1997م.
- موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب: روني إيلي ألفا، قدم له: الرئيس شارل حلو، راجعه: د. جورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.
- الموسوعة العربية العالمية: مجموعة كبيرة من المؤلفين، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، السعودية، الرياض، ط2، 1419هـ - 1999م. وهو عمل موسوعي ضخم في (30) مجلدًا، اعتمد في بعض أجزائه على النسخة الدولية من دائرة المعارف العالمية World Book International، شارك في إنجازها أكثر من ألف عالم ومؤلف ومترجم ومحرر ومراجع علمي ولغوي ومخرج فني ومستشار ومؤسسة من جميع البلاد العربية، موقع الموسوعة: [http://www.almeshkat.net/books/archi...ks/emam\\_22.rar](http://www.almeshkat.net/books/archi...ks/emam_22.rar)
- الحموي (ت: 626هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ - 1993م.
- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصل بيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها): د. محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010م.
- المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم الطبراني (ت: 360هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، د.ت.
- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، القاهرة، 2010م.
- معجم لالاند الفلسفي: ترجمه إلى العربية تحت عنوان: موسوعة لالاند الفلسفية، د. خليل أحمد خليل، دار عويدات، باريس وبيروت، ط2، 2001م.
- معجم لغة الفقهاء: محمد رواس قلعجي، وحامد صادق قنيسي، دار النفائس، عمان، ط2، 1408هـ - 1988م.
- المغازي الأولى ومؤلفوها: المستشرق يوسف هوروفتس، ترجمة: د. حسين نصار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1421هـ - 2001م.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم: طاش كبرى زاده أحمد بن مصطفى (ت: 968هـ)، مراجعة وتحقيق: كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ - 1985م.
- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: 502هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط1، 1412هـ.
- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية: يوسف حامد العالم، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض، ط2، 1994م.
- مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة: د. أحمد الريسوني، دار النداء، تركيا - اسطنبول، ط1، 2014م.



الزحيلي، (الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت: 681 هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دت.

تم البحث بحمد الله وتوفيقه

- موسوعة المستشرقين: د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1993 م.

- الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة من القرن الأول إلى المعاصرين مع دراسة لعقائدهم وشيء من طرائفهم: جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيري وآخرون، مجلة الحكمة، مانشستر، بريطانيا، ط 1، 1424 هـ - 2003 م.

- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: عبد الوهاب المسيري (منشور على المكتبة الشاملة بدون بيانات).
- نحن والتاريخ: قسطنطين زريق، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1979 م.

- نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة: شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري (ت بعد: 687 هـ = 1288 م)، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: السيد خورشيد أحمد، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط 1، 1396 هـ - 1976 م.

- النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها دراسة نقدية: حسن بن محمد حسن الأسمرى، أطروحة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، طبع: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط 1، 1433 هـ - 2012 م.

- نظم العقيان في أعيان الأعيان: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911 هـ)، تحقيق: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت، دت.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، (ت: 1036 هـ)، عناية وتقديم: د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط 2، 2000 م.

- الوحي المحمدي: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: 1354 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1426 هـ - 2005 م.

- وسطية الإسلام وسماحته: د وهبة بن مصطفى

